رحلات السندباد



الرحلة الخامسة

زواج الأميرة

رحلات السندباد



الرحلة الخامسة

زواج الأميرة

اعداد ورسوم

رفعت عفيفي

الدار النموذجية

للطباعة والنشر

الطبعة الثالثة
١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة العصرية للطباعة والنشر

الدار النموذجية — المطبعة العصرية

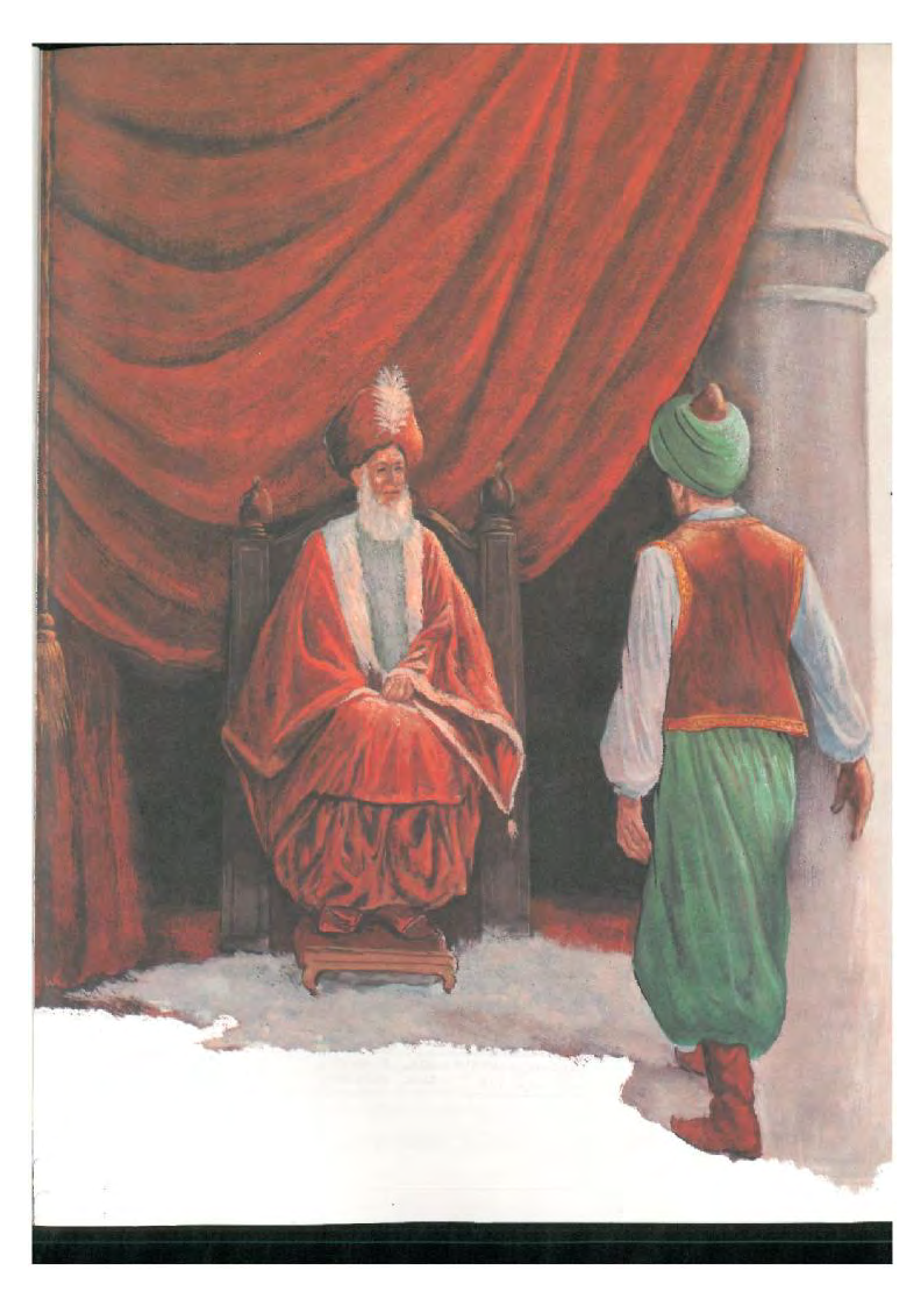
بيروت - ص.ب ١١/٨٣٥٥ - تلفاكس ١٥-٦٥٥-٩٦١١-٠٠
صيدا - ص.ب ٢٢١ - تلفاكس ٧٢٠٣١٧-٩٦١٧-٠٠

زواج الأميرة

أنا السندبادُ البَحْريُّ صاحبُ الرِّحْلاتِ الكَثِيرَة. والمُغامَراتِ المُثِيرَةِ.. كنتُ قدْ حَدَّثْتُكُمْ عَنْ رِحلَتِي الرابِعَةِ وَمَا حَدَثَ لِي فِيهَا مِنَ الأَهْوَالِ وَالأَخْطارِ وما صادفْتُهُ مِنْ متاعبَ كادَتْ أن تَذْهَبَ بِحَيَاتِي. ثُمَّ نجّاني اللّٰهُ وَأَنْعَمَ عليَّ بالكثيرِ فعُدْتُ إلى بغداد مَعي مِنَ المالِ ما لا يُعَدُّ، وَمِنَ الكُنُوزِ ما لا يُحْصَى. ووجدتُ مَتْجَرِي وَبِضاعَتِي رَائِجَةً في بغداد بِفَضْلِ أمانَةِ عُمّالي وَجَهْدِهِمْ. وعاهَدْتُ نَفْسي بعْدَها على ألَّا أُفكِّر بالتَّرْحَالِ أو السَّفَرِ أبداً.

ولكنْ لَمْ يَمضِ عامٌ على عَوْدَتِي وبَقائِي هانئاً مطمَئِناً حتَّى كَان صباحُ يومٍ ذهبْتُ فيهِ إلى مَتْجَرِي فرأيتُ موْكِباً عَظِيماً مِنَ الجُنُودِ يخترقُ السُّوقَ ويقفُ على بابِ مَتْجري. ثم نَزَلَ كبيرُ الجُنْدِ مِنْ على فرسِهِ وتقدَّمَ إليَّ مُتَسائلاً عمَّا إذا كُنْتُ أنَا السندبادَ البَحْرِيَّ. فأجَبْتُهُ وَأَنَا في دَهْشَةٍ مِنْ أَمْري: ـ نعمْ أنا السندبادُ البَحْرِيُّ. فقال الرَّجلُ باسِماً: ـ لقد أرسَلَني الخليفةُ في طَلَبِكَ لأمْرٍ هَامّ. ويجبُ أنْ تذهَبَ إليهِ الآنَ. فقلتُ له سَمْعاً وطاعَةً. وذَهبْتُ مِنْ فَوْرِي مَعَهُ إلى الخَلِيفَةِ وأنا في غايةِ السَّعادَةِ لهذا الشَّرَفِ الكَبِيرِ. فقَدْ سَبَقَ لَهُ أنْ طَلَبَنِي كَثِيراً كلَّما أرَادَ أنْ يشْتَرِيَ شَيْئاً مِنَ النَّفَائِسِ لِقَصْرِهِ وأهْلِهِ.

وما أنْ دَخَلْتُ القَصْرَ حتَّى وَجَدْتُ الحَاجِبَ بانْتِظَارِي فأدْخَلَنِي علىٰ الخَلِيفَةِ الَّذِي كانَ يَجْلِسُ وحْدَهُ فِي دِيوَانِ الخِلَافَةِ مَهْمُوماً. وما أنْ رآني حتَّى نَهَضَ مِنْ مَجْلِسِهِ فأَسْرَعْتُ أحُثُّ الخُطَى إلَيْه وانْحَنَيْتُ أمَامَه وأَنَا أقُولُ: «حفِظَ اللّٰهُ مَوْلَانا الخَلِيفَةَ وأطالَ عُمْرَه».



فأجابني مُرحِّباً بقولِهِ: «أهلاً بِكَ يا شيخَ التُّجارِ وأكرمَهُم. إنَّ لكَ عندنا منزلةً كبيرةً يا سِنْدباد».

فقلتُ لهُ: - عفواً يا مولاي. فما أنا إلّا خادِمُكُمْ وواحدٌ مِنْ رعيّتِكُمْ. فقالَ الخليفةُ: تقدَّمْ واجْلِسْ بجواري. فما أرسلْتُ إليكَ هذهِ المرّةَ إلّا لأمرٍ هامٍّ أرجُو ألّا تبوحَ بسِرِّه.

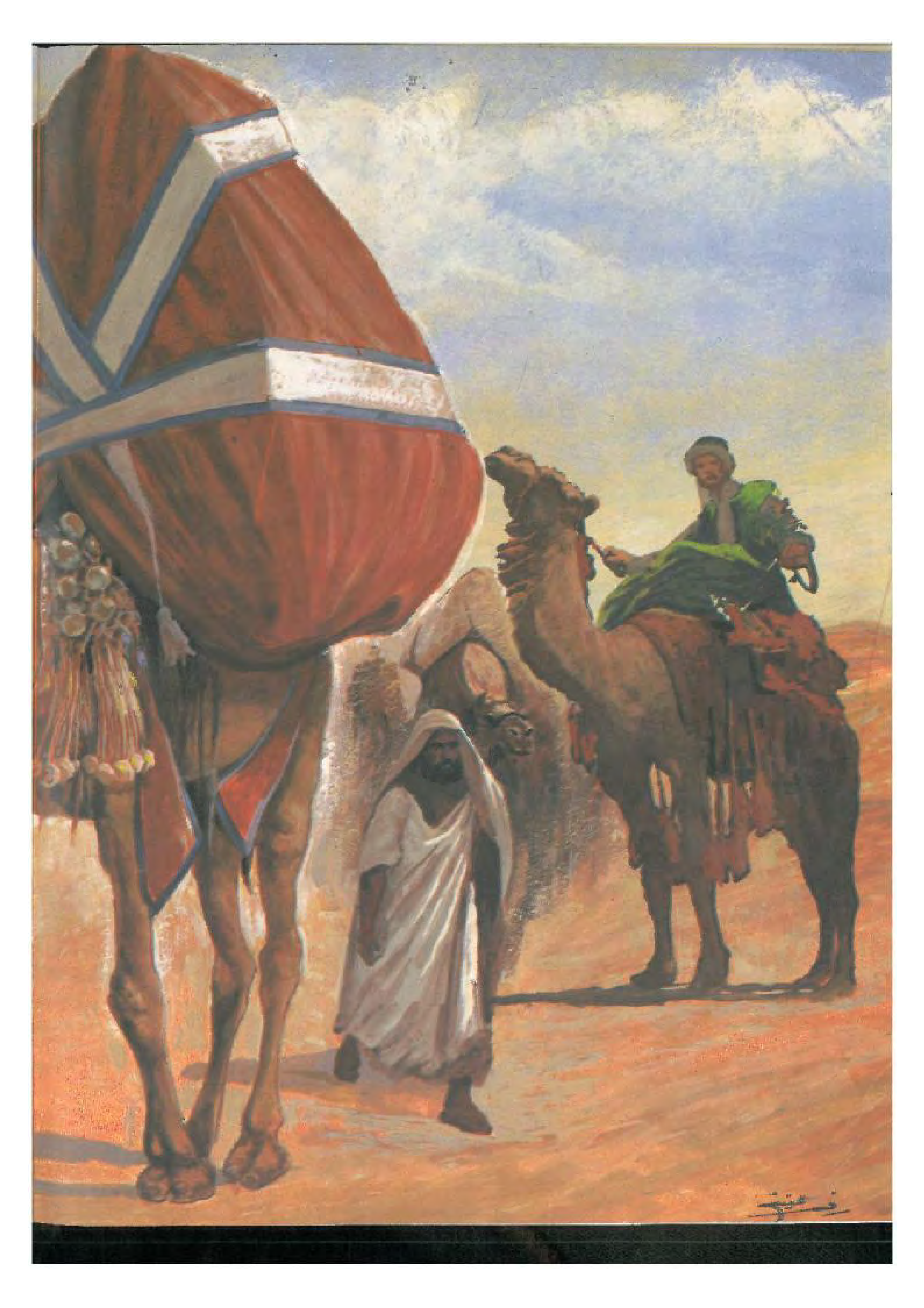
فقلتُ لهُ: يا مولايَ سِرُّكَ فِداؤُهُ روحي وثمنُهُ عُمري وإنّي مُصْغٍ لِما تقولُ.

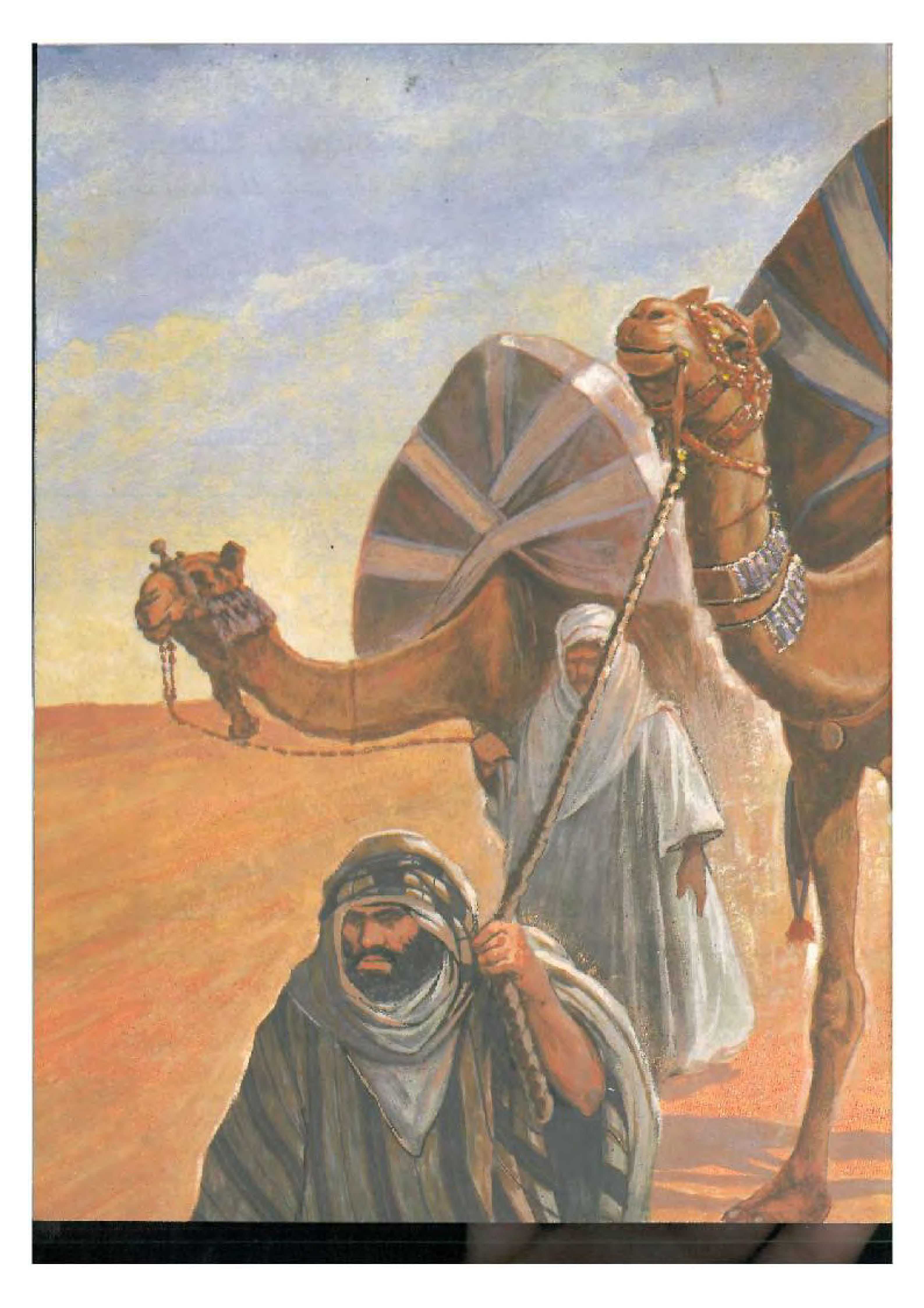
قالَ الخليفةُ: - لقدْ تقدَّمَ بيَ العُمْرُ وأخافُ أنْ أرحلَ عنِ الدُّنيا قبلَ أنْ أضعَ رواسيَ المُلْكِ وأدعمَهُ لوَلَدي.

وقد رأيتُ أنْ أُزوِّجَهُ أولاً قبلَ أنْ يؤولَ المُلْكُ إليهِ حتّى ينضجَ ويزدادَ حِكْمةً، وقدْ قضيْتُ اللّيلَ كلَّهُ ساهِراً أفكّرُ في الزّوجةِ الّتي يُمكِنُ أنْ تقِفَ إلى جوارِهِ وتشدَّ أزْرَهُ وتكونَ عوْناً لهُ في الحُكْمِ والقِيادةِ. ولا يُمكِنُ أنْ تكونَ إلّا أميرةً، ابْنَةَ ملِكٍ قويٍّ يستطيعُ أنْ يكونَ لهُ عوْناً على أعدائِهِ إذا ما ألمَّ بهِ خطْبٌ أو أتاهُ غاصِبٌ يطْمعُ في بلادِهِ.

فقلْتُ لهُ: - نِعْمَ الرأيِ ما رأيْتَ يا مولاي. وأنتَ الخليفةُ الّذي تهابُهُ المُلوكُ وتأمَلُ في التقرُّبِ إليْكَ. وحينَ تطلُبُ ابْنَةَ أحدِهِمْ لِوَلَدِكَ فهذا شرفٌ كبيرٌ لهُ يجْعلُهُ يُقدِّمُها خادِمَةً لكَ.

فقالَ الخليفةُ: «هذا صحيحٌ، ولكنّي أتمنّى أنْ تكونَ زوْجةُ ابْني تلكَ الأميرةَ الصّغيرةَ الّتي حدَّثْتني عنْها وعنْ مُلْكِ أبيها والّتي كُنْتَ أنْتَ سَبَباً في نَجاتِها مِنَ المَوْتِ في رِحلَتِكَ الأولى. وكانَتْ وقتَها طِفْلةً صغيرةً. فلا بُدَّ أنْ تكونَ الآنَ عروسةً كبيرةً؛ ولا بُدَّ أنَّ أباها لنْ يُزوِّجَها إلا لِملِكٍ أوْ ابنِ مَلِكٍ. وقدْ أرسلْتُ إليكَ الآنَ مِنْ أجْلِها. ولأعلَمَ منكَ كيْفَ السّبيلُ إليْها».





فقلتُ لَهُ: «يا مولايَ ولكنَّ الأميرةَ رُبّما تكونُ الآنَ قَدْ تَزَوَّجَتْ. فَقَدْ مَضى زَمَنٌ مُنْذُ رأيْتُها وتركْتُ مَدينَتَها. وأمامَكَ مِنْ بَناتِ المُلوكِ سِواها الكَثير. فَاطْلُبْ تَجِدْ وَأْمُرْ تُطَعْ».

فقالَ الخليفةُ: «إنِّي لا أرْجو لابْني ووَليِّ عَهْدِي إلاَّ هذِهِ الأَميرَةَ الَّتي كانَتْ في صِغَرِها تَتَّصِفُ بالشجاعة والقُوَّة. فهذا ما عَرَفْتُهُ مِنْكَ عَنْها وأنْتَ تَرْوي لي حِكايَتَها...»، فَأَجَبْتُه بأنَّها كانَتْ حقّاً شُجاعَةً وقَوِيَّةً. ولا شيءَ يَمْنَعُ مِنْ أنْ نَبْعَثَ رَسُولاً إلى بَلَدِها فَيُوافِينا بأخْبارِها.

فقالَ الخليفةُ: - إني لا أُريدُ أنْ يَعْلَمَ بهذا الأمرِ أَحَدٌ سِوانا. ولَقَدْ أرْسَلْتُ إليكَ حتَّى تتجهَّزَ للسَّفَرِ في أقْرَبِ فُرْصَةٍ كَيْ يَتِمَّ هذا الأمْرُ سَريعاً.

وهُنا شَعَرْتُ أنَّ الأرْضَ تَميدُ مِنْ تَحْتي وانتابَتْني حَيْرَةٌ شَديدَةٌ ولَمْ أجِدْ ما أُجيبُ بِهِ مِنْ قَوْلٍ بَعْدَ قَوْلِ الخَليفَةِ.

ولمّا رأى ما أنا عليْهِ مِنْ حالٍ قالَ لي: - يجِبُ أنْ تَعْلَمَ أنَّكَ ستُسْدِي إلى بَلَدِكَ خِدْمَةً جَليلَةً بِمَا ستَقومُ بِهِ مِنْ عَمَلٍ في هٰذا الشَّأْنِ.

فقلتُ لَهُ: «يا مَوْلاي إنِّي فداءٌ لَكَ وَلِبَلَدِي. ولكنِّي كنتُ قَدْ قَطَعْتُ عَهْداً على نفْسِي بألاَّ أبْرَحَ هذا البَلَدَ وألاَّ أُسافِرَ أبَداً. فإنِّي ما صادَفْتُ في أسْفاري إلاَّ الأخْطار؛ وقد أشْرَفْتُ على الهَلاكِ في أكْثَرِهَا.

فقالَ الخليفةُ ضاحِكاً: - ولكِنَّكَ تَعُودُ دائماً مُحَمَّلاً بالمالِ والكُنوز. ولَوْلا رِحْلاتُكَ لَما أصْبَحْتَ الآنَ في مِثْلِ هٰذا الحالِ. فَمَا بالُكَ وأنا الَّذي أطْلُبُ إلَيْكَ السفرَ لأَمْرٍ فيهِ صالِحُ وَلَدِي وَصالِحُ هٰذا البَلَد؟ أمّا إذا كانَتِ الأميرةُ كَمَا تَقولُ لا نَعْلَمُ مَا إذا كانَتْ تَزَوَّجَتْ أمْ لا فهٰذا أمْرٌ مَتْروكٌ لِعِلْمِ اللهِ وما علَيْنا إلاَّ أنْ نَسْعى وَيَفْعَلَ اللهُ ما يُريد».

وهُنا وجَدْتُ نَفْسي عاجزاً عنِ الرَّدِّ ولمْ يَعُدْ أمامي مَفرٌّ مِنْ قُبولِ رَغْبَةِ الخَليفَةِ.

فقُلْتُ: ـ أَنا طَوْعُ أَمْرِكَ يا مَوْلايَ وَرَهْنُ إشارَتِكَ.

فربَتَ الخَليفَةُ بِيَدِهِ على كَتِفِي وقالَ: ـ جزاكَ اللَّهُ خيراً عنِّي وعنْ وَلَدِي وَبَلَدِي يا سِنْدِبادُ. فَانْصَرِفِ الآنَ وخُذْ مِنَ الوَقْتِ ما شِئْتَ على أنْ تُجهِّزَ أمْرَكَ لِلسَّفَرِ.

خرجْتُ مِنْ قصْرِ الخليفةِ ذاهِلاً، بينما كلُّ مَنْ يَراني يحسُدُني ويَتَمَنَّى لو كانَ مَكاني. وذهبْتُ إلى قَصْري فقضَيْتُ الليلَ كلَّهُ وأنا في مَزيجٍ مِنَ الحُزْنِ والفَرَحِ حتَّى غَلَبَنِي النَّوْمُ في نِهايَةِ الأمْرِ. وفِي الصَّباحِ أيقَظَنِي خادِمِي بقَوْلِهِ إنَّ بالبابِ ثلَّةً مِنْ جُنودِ الخَليفَةِ يَطْلُبونَنِي. فخَرَجْتُ إليهِمْ فأخبرُونِي بأنَّ الخَليفَةَ يطلُبُنِي فَأسْرَعْتُ معَهُمْ إليهِ ودخلْتُ إلى دِيوانِ الخِلافَةِ فرأيْتُهُ بيْنَ الوُزَراءِ والحاشِيَةِ غاضِباً مُهْتاجاً يَصُبُّ لَعَناتِهِ على بَعْضِهِمْ وقدْ وقَفَ السَّيَّافُ إلى جِوارِهِ والجَميعُ في حالَةٍ مِنَ الذُّعْرِ والخَوْفِ وقَدْ طَأطَأوا رُؤُوسَهُمْ إلى الأرْضِ وبَدَتْ عَلَيْهِمْ مَظاهِرُ الخِزْيِ والهَوانِ.

وما أنْ رَآني الخليفةُ في القاعَةِ حتى أشارَ لَهُمْ جميعاً بالانْصِرافِ فخَرَجُوا يَجُرُّونَ أذْيالَهُمْ. ثم أشارَ إليَّ الخليفةُ بأنْ أقْتَرِبَ وأجْلِسَ إلى جِوارِهِ فجَلَسْتُ ساكِناً بَيْنَما بادَرَنِي بأنَّ عليَّ أن أُسْرِعَ بالرَّحيلِ إلى حيثُ طَلَبَ إليَّ بالأمْسِ. إذْ أنَّهُ اكتشَفَ بالأمْسِ بَعْدَ ذَهابِي مؤامَرَةً قامَ بِها بَعْضُ الخَوَنَةِ في القَصْرِ.

فقُلْتُ لَهُ: ـ أَسْتَطِيعُ السَّفَرَ فَوْراً إذا طُلِبَ مِنِّي ذلِكَ.

فقالَ لِي: ـ إذاً اذْهَبْ لِتُجَهِّزَ نَفْسَكَ للسَّفَرِ غَداً.

تَرَكْتُ قَصْرَ الخِلافَةِ، وعُدْتُ إلى قَصْري مَشْغولَ الخاطِرِ لا أدْرِي كَيْفَ أَتَصَرَّفُ في هذا الوَقْتِ القَصِيرِ وأكُونُ جاهِزاً للسَّفَرِ.

ولكنْ لَمْ تَدُمْ حَيْرَتِي طَويلاً. فَسُرْعانَ ما رَأيْتُ جَلَبَةً شَديدَةً في حَديقَةِ قَصْرِي

فنظرْتُ مِنَ النافذَةِ لأرى مجموعَةً مِنْ فُرْسانِ الخَليفَةِ على جيادِهِمْ وخَلْفَهُمْ كَثيرٌ مِنَ الجِمالِ عَلى ظُهورِها الأَحْمالُ. وبَعْدَ بُرْهَةٍ مَثُلَ قائدُ الفُرْسانِ بَيْنَ يَدَيَّ لِيُخْبِرَني أَنَّ الخَليفَةَ قَدْ بَعَثَ بِهذِهِ الجِمالِ التي تَحْمِلُ الهَدايا لآخُذَها مَعي وأقدِّمَها إلى مَلِكِ البِلادِ الَّتي سأذهَبُ إلَيْها. وقدْ أسْعَدَني أنَّ الخَليفَةَ قَدْ فَكَّرَ في الأمْرِ بهذه السُّرْعَة.

لمْ تَمْضِ ساعاتٌ قليلةٌ حتّى كنتُ أتحَرَّكُ بِهذِهِ القافِلَةِ داخِلَ دُروبِ المَدينَةِ والجُنودُ والفُرْسانُ يُحيطونَ بِنا في مَوْكِبٍ لا يَخْتَلِفُ عَنْ موكِبِ الخَليفَةِ ممَّا دَفَعَ النَّاسَ للخُروجِ وَراءَنا والفُرْجَةِ عَلَيْنا حتّى أوْغَلْنا في الصَّحْراءِ وعادَ رَكْبُ الحِراسَةِ وانطلَقْتُ بِمَنْ مَعي بِاتجاه البَصْرةِ فَوصَلْناها ظُهْرَ اليَوْمِ السَّابعِ لِخُروجِنا مِنْ بغداد.

وكانَتْ أوامِرُ الخَليفَةِ لي أنْ أتَّخِذَ مَرْكَباً خاصّاً بي ولا يَكُونَ فيه مِنَ الرُّكّابِ أو التُّجّارِ أحَدٌ سِوايَ.

ولمْ أجِدْ مشقَّةً في العُثُورِ عَلى ذَلِكَ المَرْكَبِ بَعْدَ أنْ قَدَّمْتُ للرُبّانِ مَصاريفَ الرِّحْلَةِ كامِلَةً وعَلِمَ أنّي في مُهِمَّةٍ مِنْ قِبَلِ الخَليفَةِ.

وعلى الفَوْرِ شَرَعَ البَحّارَةُ في القِيامِ بِعَمَلِهِمْ في هِمَّةٍ ونَشاطٍ لِيَخْرُجَ المَرْكَبُ في نَفْس اليَوْمِ مُتَّخِذاً وِجْهَتَهُ إلى حيثُ أخْبَرْتُ الرُّبّانَ وإلى بِلادِ السَّنْدَسْتانِ. ودَعَوْتُ اللَّهَ أنْ يُكَلِّلَ مَسْعايَ بالنَّجاحِ والتَّوْفيقِ...

مَضى شَهْرانِ وعِدَّةُ أيّامٍ ونَحْنُ نَشُقُّ البَحْرَ مِنْ غيرِ أنْ نَرْسُوَ في ميناءٍ أو نَسْتَريحَ في جزيرةٍ ممَّا جَعَلَ البَحّارَةَ في حالَةِ تَذَمُّرٍ لَوْلا أنّي كُنْتُ صارِماً مَعَهُم أهَدِّدُهُمْ دائماً بالخَليفَةِ وَعِقابِهِ لَهُمْ إذا صَدَرَ مِنْهُمْ ما يُخالِفُ أمْري حتّى وَصَلْنا في النِّهايَةِ إلى هَدَفِنا.

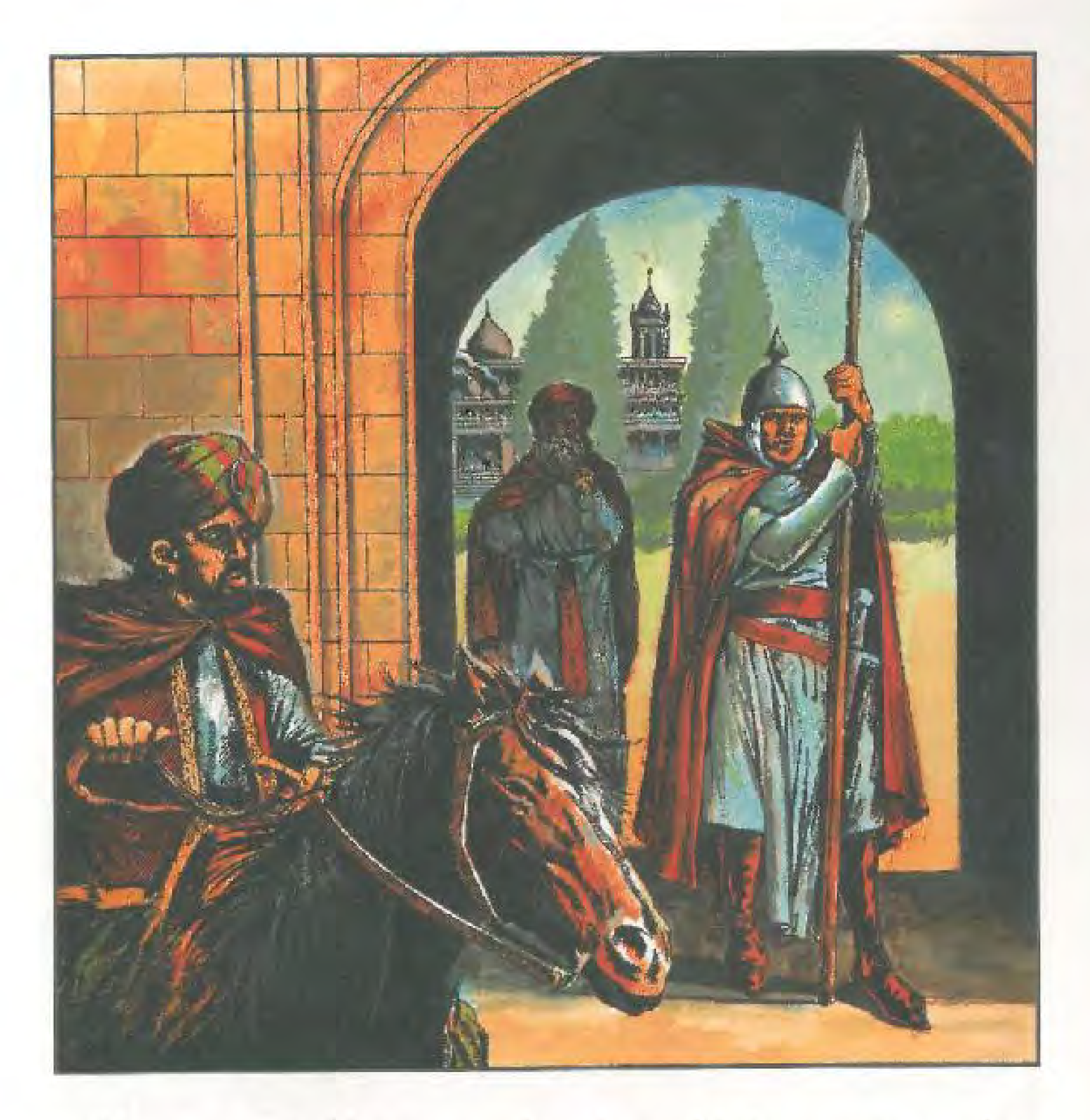
وما أنْ وَصَلْنا الشاطئَ حتّى أرسلْتُ مَنْ يشتري خُيولاً وَضَعْتُ عليها ما بَعَثَ بِهِ الخليفةُ مِنْ هدايا وتوجَّهْتُ إلى قَصْرِ السلطانِ وكانَ لا يزالُ هو القصْرُ الذي سبَقَ أنْ



أضافوني فيه. وخرجَ إلينا الحُرّاسُ وحالوا دونَ دُخولنا حتّى يَعْرِفوا مَنْ نحنُ ومِنْ أينَ أتينا وما هِيَ بُغْيَتُنا مِنْ مُقابَلَةِ السُّلْطان.

وحينئذٍ أشَرْتُ لكبيرِهِمْ أنْ يتقدَّمَ إليَّ ويقتَرِبَ مِنّي ليَعْرِفَ مَنْ أنا. لكنَّ إشارتي لَهُ أغضبَتْهُ وكَبُرَ عليهِ أن يتقدَّمَ إليَّ وأمَرَني بالنُّزولِ مِنْ فوقِ فَرَسي وهُوَ يُشْهِرُ سيفَه في وجْهي. وقد أدْهَشَني منْه هذا التصرُّفُ بادِىءَ الأمْرِ لكنّي عدتُ وحدَّثْتُ نفسي بأنَّهُ معذورٌ فرُبَّما لم يعْرِفْني لِحَداثَةِ سِنِّهِ ولمْ يَكُنْ إلاّ طفلاً حينَما كنتُ أنا وزيراً في هَذا البَلَد.

فتبسَّمْتُ وقلْتُ لَهُ: «إذا كنتَ لا تَعْرِفُني أيُّها الشّابُّ فأحْضِرْ لي قائِدَ الحرس كي أتحدَّثَ إلَيْه». لكنَّ الشابَ كانَ مغروراً أكثرَ مِنَ اللازِمِ بحُكْمِ مكانَتِهِ وقالَ لي باسْتِهْجان: ـ ومَنْ تكونُ أيُّها المُخَرِّفُ ليحضرَ إليكَ قائدُ الحَرَس؟. إنَّكَ تستحقُّ التأديبَ والسِّجْنَ أنْتَ ومَنْ مَعَك. ثم أشارَ إلى بقيَّةِ الحرّاسِ أنْ يلتفُّوا حَوْلَنا ويَسُوقُونا إلى السِّجْن. وكانَ قدْ نَفِدَ صَبْري منْ تَصرُّفِه واشتدَّ غَضَبي مِنْ حُمْقِهِ لذا صَرَخْتُ فيه صَرخَةً جعَلَتْهُ يجْمُدُ في مكانِهِ مذعوراً وأنا أقولُ لَهُ: «ألا تعرفُ مَنْ أنا أيُّها الغبيُّ الأحْمَق؟ إنّني السِّنْدِبادُ حاكمُ هذِهِ البلادِ بعدَ السُّلْطان. فاذْهَبْ مِنْ فورِكَ وأحْضِرْ رئيسكَ قَبْلَ أنْ أُطيحَ بكَ وبِهِ وأُجْهِزَ عليكَ بسيْفي أنْتَ وَمَنْ مَعَك». ووقفَ الضابطُ الشابُّ ينظرُ إليَّ ولا يتحرَّكُ مِنْ مكانِهِ فأخْرَجْتُ سَيْفي مِنْ غِمْدِه فأُرْتِجَ على الحاضِرينَ أمْرُهُمْ وَوَقَفَ الحرّاسُ ينظرُونَ إلى سَيْفي وإلى رَئيسِهِمْ. وكادَ الأمرُ يتطوَّرُ إلى معركةٍ لوْلا أنْ حَضَرَ قائدُ الحَرَسِ يعدُو على فرسِهِ حتّى وقفَ أمامي وكانَ هُوَ نَفْسُهُ الذي سَبَقَ أنْ وضَعْتُهُ أنا في هَذِهِ المكانَةِ وذلكَ المَرْكَز. فما أنْ رآني حتّى أخذَتْهُ الدهْشَةُ وجعَلَ يتفحَّصُ في وجْهي. ولمّا رآني أبْتَسِمُ لَهُ وأُناديهِ بِاسْمِهِ هَتَفَ مُهَلِّلاً وقائلاً: ـ مولايَ سندباد. ثُمَّ قفزَ مِنْ فوْقِ حصانِهِ وركَعَ أمامي وهُوَ يقولُ أهلاً بكَ يا مولايَ في بلدك.

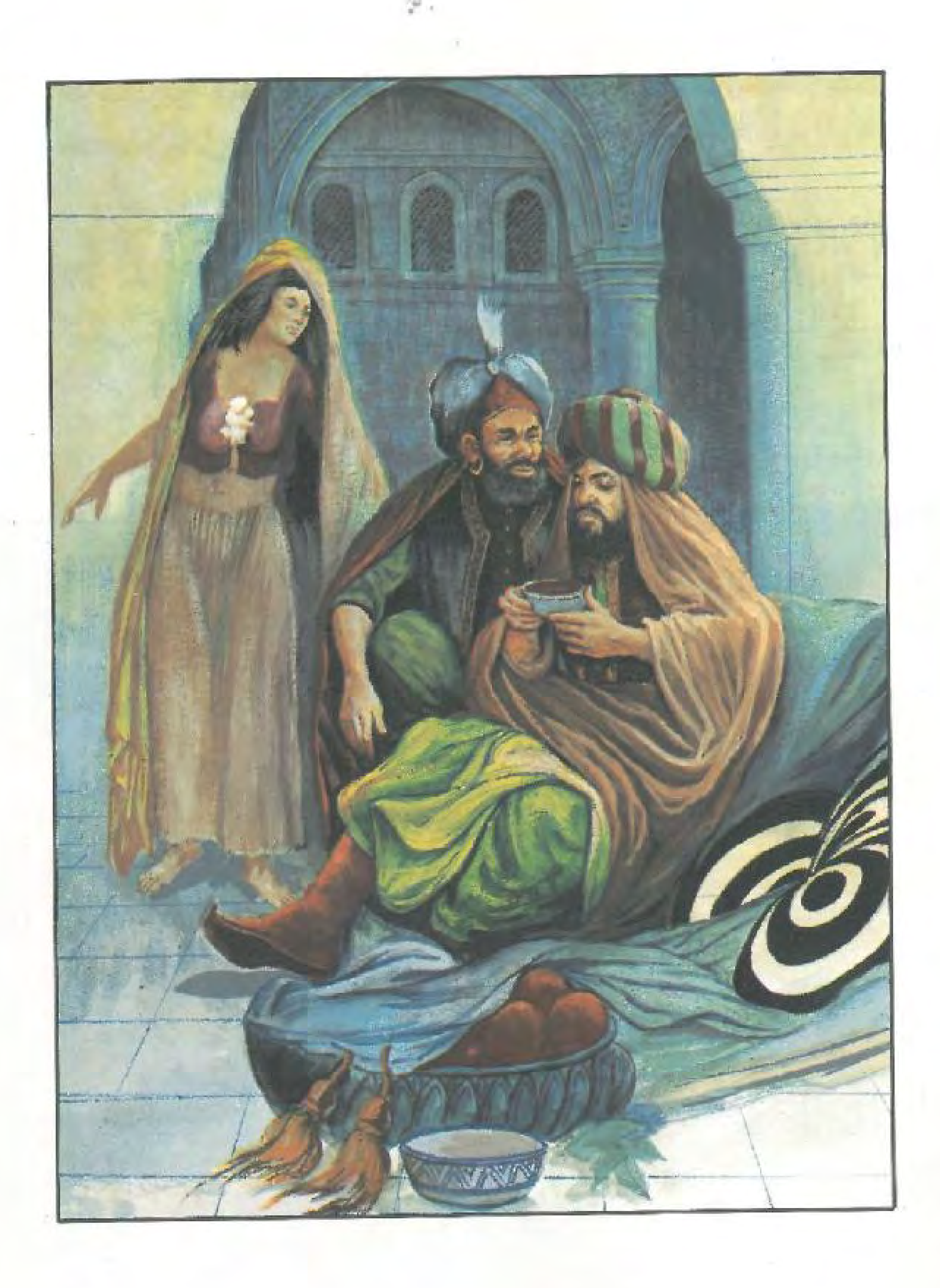


فنزلتُ من فوقِ حِصاني وأخذْتُ بيدِهِ وهُوَ يقولُ: - إني لا أصدِّقُ عَيْني. ثم أمَرَ الحُرّاسَ الّذِينَ كانُوا يقفُونَ فِي ذُهولٍ بأنْ يصطفُّوا لِتَحِيَّتِي. ورأيتُ رئيسَهُمُ الشّابَّ وقدْ كادَ الخوفُ يقتُلُه. فلمَّا رآني أنظرُ إليهِ ارْتَمى على الأَرْضِ أمامِي يطلُب الصفْحَ ويعتَذِرُ بأنّه لا يعرِفُني. وحينَ رآهُ قائِدُه يفعَلُ ذلكَ قالَ لهُ: - الويلُ لكَ إنْ كُنْتَ قد أسأتَ إلى سيِّدِي ووليِّ نِعْمَتِي. فقلْتُ للرَّجلِ إنّهُ لمْ يَحْدُثْ منْهُ أيِ إساءَة. بلْ هُوَ مِثالٌ للجُنْدِيّ المُهْتَمّ

بعَمَلِهِ. ونظرَ الشابُ ناجيَتي بعينَيْنِ كِلْتَاهُمَا عِرفانٌ بالشُّكْرِ والجميل.

وبعدَها تحرَّكَ الرَّكْبُ إلى داخلِ حديقةِ القصرِ وكانَ قدْ شاعَ فيه الخبرُ فرأيتُ كثيراً مِنَ الجنودِ والخدَمِ وقدْ التفُّوا حولَ مَوْكِبي وهُمْ يحيُّونَني بكثيرٍ مِنَ التَّرحابِ والحُبِّ والدُّعاءِ بسلامَةِ العَوْدَة.

وما أن اقتربْتُ مِنْ سُلَّمِ القصْرِ حتّى رأيتُ السلطانَ والحاشيةَ والوزراءَ بالبابِ يقفُونَ. فنزلْتُ مِنْ على جوادِي وأسرعْتُ الخُطى على السُّلَّمِ حتّى وقفْتُ أمامَ السُّلْطانِ منْحنياً. فرأيتُ السلطانَ يتقدَّمُ إليَّ ويأخذُني بيْنَ ذِراعَيْه ويعانِقُني بشوْقٍ جعلني أُحِسُّ بعظيمِ مَكانَتي عِنْدَه. وسمعتُهُ يقولُ لي بِكُلِّ الحُبِّ: ـ يا وَلدي قدْ طالَ غيابُكَ عنّا ونحنُ في غايةِ الشَّوْقِ إليْكَ؛ فغلبَني البكاءُ إحْساساً منّي بتقصيري نَحْوَهُ ونُكْراني لِفَضْلِهِ بِعَدَمِ زِيارَتي لَهُ طِوالَ هٰذِهِ السِّنين. وأجبْتُه بأنّي ما تأخَّرْتُ عليهِ إلاّ رغْماً عنّي. فأخذَ يربِّتُ على كَتِفِي بلطفٍ ويقولُ: ـ لا يَهُمُّ طالَما جئتَ إلينا أخيراً. ثُمَّ أخذَ بِيَدِي وسِرْنا والجَميعُ خَلْفَنا حتّى وصلْنا إلى قاعَةِ العَرْشِ فأجْلَسَني بِجِوارِهِ وجَلَسَ الجَميعُ في أماكِنِهِمْ وقدْ علا البِشْرُ وجُوهَهَم. وكانَ الخبرُ قدْ شاعَ في القصْرِ كلِّه فرأيْتُ امْرَأَةً قدْ خرجَتْ مِنْ وراءِ الأسْتارِ والحُجُبِ وألْقَتْ بِنَفْسِهَا على أكْتافي وهِيَ تغْمُرُني بقُبلاتِها على رأسي وبيْنَ عَيْنَيَّ وأنا في شِدَّةِ العَجَبِ مِنْ أمْرِها ونظرتُ إلى السُّلْطانِ فرأيْتُهُ يضْحَكُ كثيراً ويقولُ: ـ ألاَ تعرِفُ مَنْ هٰذِهِ؟ فقلتُ وأنا خَجِلٌ مِنْ نَفْسي: ـ لا أعرفُ يا مَوْلاي. فإذا بالمرأةِ تقولُ. ـ ألاَ تعْرِفُني حقّاً؟ هل نَسِيتَني أمْ أنّني تغيَّرْتُ كثيراً عنْ ذِي قَبْل. فأمْعَنْتُ النظرَ في وجْهِهَا ثُمَّ هَتَفْتُ في دَهْشَةٍ: ـ مَوْلاتي الأميرة. إنّي لا أُصدِّق!! أنْتِ يا مَنْ كنتِ بالأمْسِ طفْلَةً صغيرةً فإذا أنْتِ اليومَ امرأةٌ كامِلَة. وحينئذٍ أومأَ السلطانُ بإشارةٍ مِنْ يَدِهِ إلى جَميعِ الحاضِرينَ فانْصَرَفوا. وبعدَها خَرَجَتْ مِنْ خَلْفِ السِّتْرِ زَوْجَةُ السُّلْطانِ مُرَحِّبَةً في سعادةٍ بِعَوْدَتي ومُتَمَنِّيَةً بقائي معَهُمْ للأبَد. ولكنّي أجَبْتُ بِقَوْلي أنّني جِئْتُ لأمْرٍ



هامٍ بطلبٍ مِنْ خليفةِ بلادي. وقدْ أرسلَ معي لكُمْ هدايا تليقُ بمقامِكُمْ ومكانتِكُمْ عِنْدَهُ. وهذا الأمرُ خاصٌّ بأميرتِنا الَّتِي لمْ تعُدْ الآنَ صغيرةً.

سكتَ السلطانُ لحظةً وقدْ علَتِ الدَّهْشَةُ وجُوهَهُمْ جميعاً ثُمَّ سألَنِي عمَّا يكونُ هذا الأمْرُ الخطِيرُ. فتبسَّمْتُ وقلْتُ: إنَّهُ أمْرٌ فيهِ كلُّ الخيرِ والسَّعادةِ لكُمْ ولخليفةِ بلادِي. فقدْ أرْسلَنِي خاطِباً للأميرةِ مِنْ أجْلِ ولَدِهِ ووليِّ عهْدِهِ. وقَدِ اخْتارَنِي لِهذِهِ المُهِمَّةِ لِعِلْمِهِ بمكانتِي لديكم.

وسَرَتِ الفرحَةُ وعَمَّ السرورُ وجُوهَهُمْ جميعاً وظهَرَ الحَيَاءُ على وجْهِ الأميرةِ ونَادَى السلطانُ على أتْباعِهِ وحاشيتِهِ ووزرائِهِ لِيَزُفَّ إليهم الخبرَ السعيدَ وأمرَ بأنْ تُقامَ الزِّيناتُ وتعمَّ الأفراحُ أنحاءَ البِلادِ.

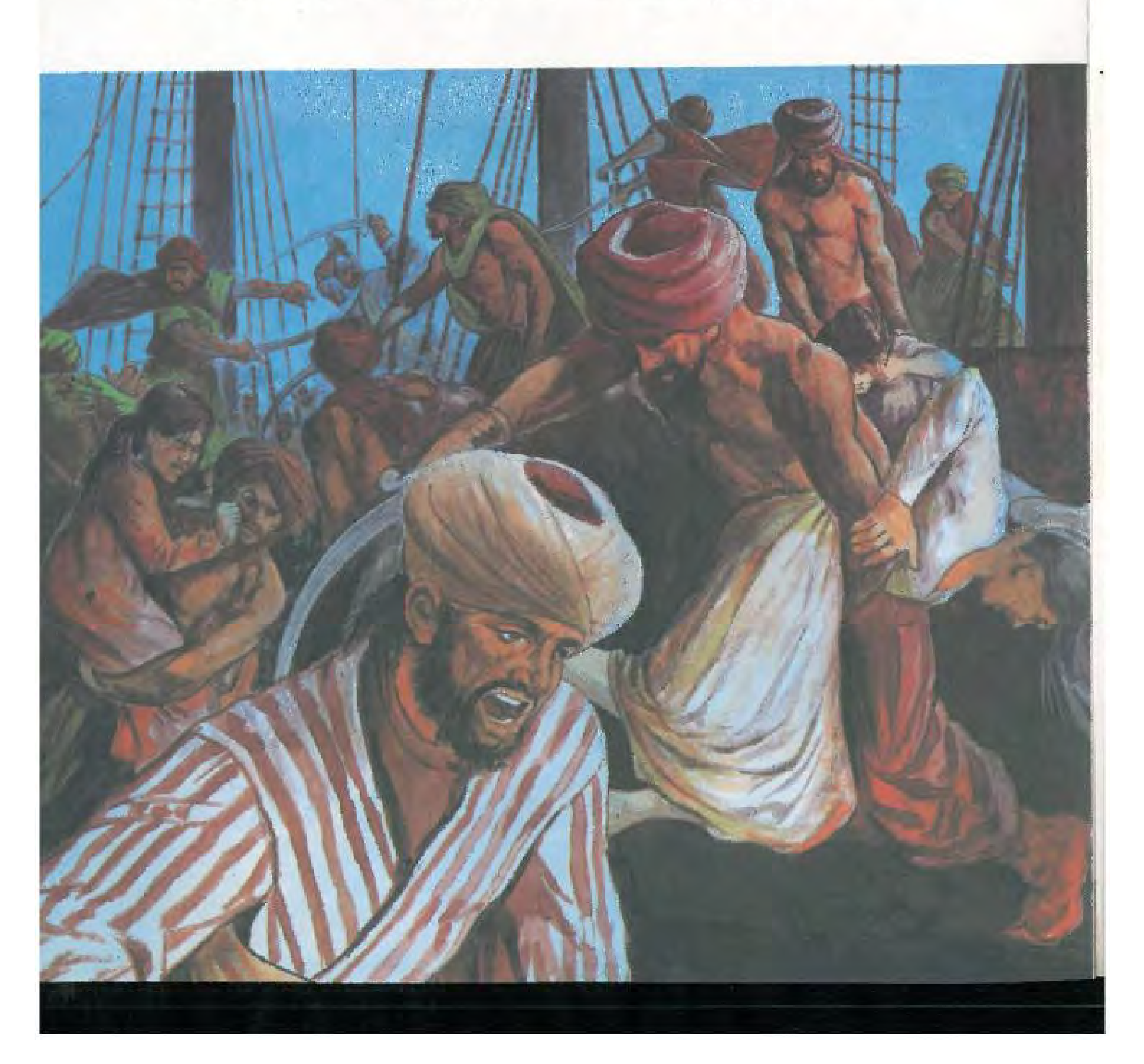
ومضَتْ شُهُورٌ ثلاثةٌ في تجهيزِ العَرُوسِ بكلِّ ما يَلْزَمُ وتأهَّبْنا للرَّحِيلِ والعوْدَةِ إلى بغداد.

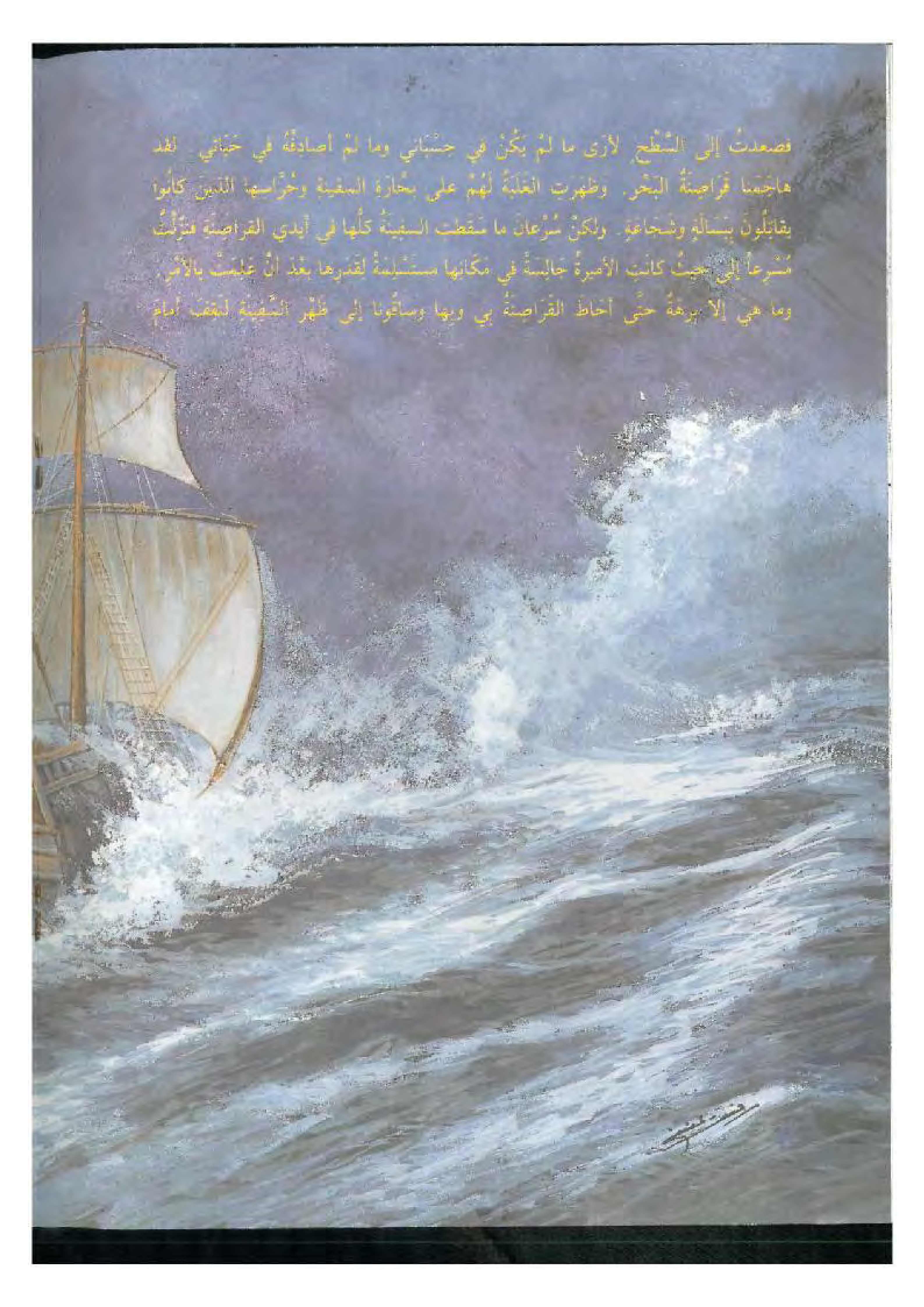
وكانَ يومُ الوداعِ يوماً مشهوداً مشْحُوناً بالفَرْحَةِ والبُكاءِ. وأقْبلَ السلطانُ يعانِقُنِي قائلاً: ـ هٰذِهِ ابْنَتِي أمانَةٌ عِنْدَكَ. وهيَ منَ الآنِ ابنَتُكَ. فكُنْ مكَانِي وافْعَلْ مِنْ أجْلِهَا ما يَليقُ بمُقامِي. فقلتُ لهُ: ـ يا مولايَ السلطان، سيأتي يومٌ قريبٌ تدخُلُ فيهِ بغداد وترَى الأميرةَ وقدْ صارتْ زوجةَ خليفتِها. فكُنْ قريرَ العَيْنِ، مُرْتاحَ البالِ.

وما أنْ فرغتِ الأميرةُ منْ وَدَاعِ والِدِهَا ووالِدَتِهَا حتَّى صَعِدَتْ إلى ظهْرِ المرْكبِ في موْكبٍ مِنَ الوصيفاتِ والجَوارِي واتَّخذَ الجَميعُ أماكِنَهُمْ فِيه. ثمَّ صعِدتُ أنا فأمَرَ القبطانُ برَفْعِ المِرْسَاةِ ونَشْرِ الشِّرَاعِ وتَحرَّكَ المَرْكَبُ مُغادِراً الشاطىءَ آخِذاً وُجهَتَهُ إلى عُرْضِ البَحْرِ...

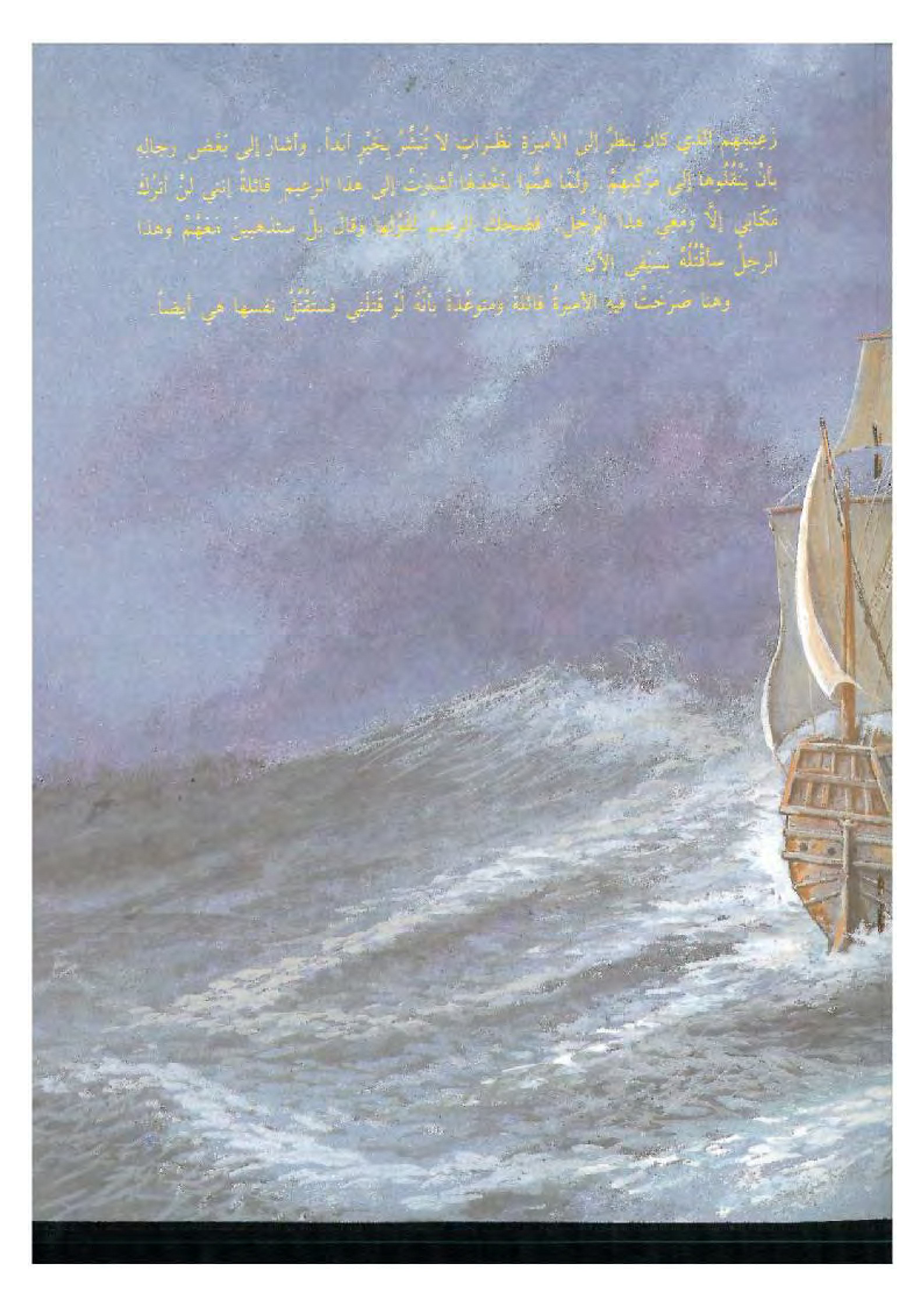
مرَّتِ الأيَّامُ والأسابيعُ والمركَبُ يَتَهادَى على الماءِ وقَدْ طَابَتْ لَهُ الريحُ وأنا قَائِمٌ بكلِّ ما يَلْزَمُ الأميرةَ مُجيباً لكلِّ مطالِبِهَا عاملاً علىٰ تَوْفيرِ أسبابِ الراحَةِ لَها ولِمَنْ مَعَها.

وذاتَ يومٍ لاحَتْ لنا في الأُفُقِ سفينةٌ كبيرةٌ تسيرُ بعيدةً عنَّا فوقَفْنا ننظرُ إليْها ونحْنُ لا نعرفُ إلى أينَ تتَّجِهُ حتَّى غابَتْ عنْ أنظارِنا مَعَ غروبِ الشَّمْسِ. وفي تلكَ اللَّيلة طَلَبْتُ مِنَ الراقصاتِ والمُغَنِّيات أن يُقَدِّمْنَ كلَّ ما يُجِدْنَهُ أمامَ الأميرةِ لِيُسَرِّينَ عنْهَا. وفي منتصفِ اللَّيْلِ آوَى كلٌّ مِنَّا إلى مضجَعِه وآستسلم للنَّوْم. ومَعَ إشْرَاقَةِ شَمْسِ اليَوْمِ التالي صَحَوْتُ مِنْ نَوْمي فَزِعاً على هِزَّةٍ عَنِيفَةٍ وَصَدْمَةٍ قَوِيَّةٍ أعْقَبَها أصواتُ مَعْرَكَةٍ طاحِنَة.





فصعدتُ إلى السَّطْحِ لأرى ما لمْ يكُنْ في حسْباني وما لمْ أصادِفْهُ في حَياتي. لقد هاجَمَنا قَراصِنَةُ البَحْرِ. وظهرتِ الغَلَبَةُ لهُمْ على بحّارةِ السفينةِ وحُرّاسِها الذينَ كانُوا يقاتِلُونَ بِبَسالَةٍ وشَجاعَةٍ. ولكنْ سُرْعانَ ما سقطتِ السفينةُ كلُّها في أيدي القراصنةِ فنزلْتُ مُسْرِعاً إلى حيثُ كانَتِ الأسرةُ جالِسَةً في مكانِها مُسْتَسْلِمَةً لِقَدَرِها بعْدَ أنْ علِمَتْ بالأمرِ. وما هي إلا بُرهةٌ حتّى أحاطَ القَراصِنَةُ بي وبِها وساقُونا إلى ظَهْرِ السَّفينةِ لِنقِفَ أمامَ



زعيمهم الذي كان ينظرُ إلى الأميرة نظراتٍ لا تُبشِّرُ بخيرٍ أبداً. وأشار إلى بعض رجاله بأنْ ينقلوها إلى مركبهم. ولمّا همّوا بأخذها تشبثتْ إلى هذا الزعيم قائلةً إنني لن أتركَ مكاني إلّا ومعي هذا الرُّجل. فضحك الزعيمُ لقولها وقال بلْ ستذهبين معهم وهذا الرجلُ سأقتلُهُ بسيفي الآن.

وهنا صرختْ فيه الأميرةُ قائلةً ومتوعّدةً بأنّه لو قتلني فستقتلُ نفسها هي أيضاً.

وَنَظَرَ إِلَيْهَا الرَّجُلُ وَقَدْ أَخَذَهُ تَهْدِيدُها وَصَمَتَ بُرْهَةً ثُمَّ قالَ لِمَنْ حَوْلَه: خُذوه مَعَها. وَانتَقَلْنا إِلى مَرْكَبِهِمْ وَمَعَنا الجَوارِي والوَصيفات. وكانَ لَهُ سِرْدابٌ كَأَنَّهُ سِجْنٌ وَضَعُونا فيه وأَغْلَقوهُ عَلَيْنا. ومضى وقْتٌ طَويل ونَحْنُ على هذا الحال يقدِّمونَ إلينا الطَّعامَ مَرَّةً واحدةً في اليوم. وقدْ عَلِمْتُ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ نَهَبوا كلَّ ما كانَ في السفينةِ بعْدَ أَنْ قَتلوا جَميعَ مَنْ كانَ عَلَيْها مِنَ الرِّجال.

وذاتَ ليلَةٍ جاءَ بعضُ الرجالِ في طَلَبِ الأَميرَةِ لِزَعيمِهِمْ فوقَفْتُ حائلاً بينَها وبينَهُم وقرَّرْتُ أَنْ أُدافِعَ عَنْها حتّى الموتِ. ولمَّا كَثُرَ صُراخُ الجَوارِي ووقَفْنَ خَلْفي لِيُدافِعْنَ مَعِي عَنْ أَميرَتِهِنَّ جاءَ الزعيمُ على صَوْتِ الصُّراخِ ورَآني فشَهَرَ سَيْفَهُ لِيَقْتُلَنِي ولَكِنِّي وَقفتُ ثابِتاً في مَكاني وقلْتُ لَهُ إِنَّ هذِهِ الفتاةَ ابْنَةُ مَلِكٍ وستكونُ زوجةً لِمَلِكٍ فإِيَّاكَ أَنْ تَقْتَرِبَ مِنْها. وخَيْرٌ لَكَ أَنْ تَطْلُبَ عَنْها فِدْيَةً مِنْ أَنْ تَمَسَّها بِسُوء.

وَقَفَ زَعيمُهُمْ يَنْظُرُ في ذُهولٍ وَسَيْفُهُ في يَدِهِ ويُقَلِّبُ كَلامي في رأسِهِ وفي النِّهايةِ ابْتَسَمَ وقالَ: ـ الحقُّ مَعَكَ؛ فالفِدْيَةُ التي سآخُذُها عَنْكُمْ خيرٌ عِنْدي مِنْ قَتْلِكُمْ. ثم صَرَفَ رِجالَهُ وأَغْمَدَ سَيْفَهُ وصَعِدَ إِلى السَّطْحِ تارِكاً البابَ مَفْتوحاً ولَمْ يُغْلِقْهُ عَلَيْنا بَعْدَها قط. بَلْ إِنَّ معاملةَ الجَميعِ لنا بَعْدَ ذلِكَ قَدْ تَبَدَّلَتْ وأَصْبَحْنا آمِنينَ ولَوْ إِلى حِين.

وَبَعْدَ عِدَّةِ أَيَّامٍ وَصَلْنا إِلى جَزيرَةٍ مَهْجُورَة ما أَنْ نَزَلْنا إِلَيْها حَتّى عرفْتُ أَنَّها حِصْنُهُم ومَخْبَأُهُم. وكانَتْ بها أكواخٌ صَنَعُوها لِتَكُونَ مَساكِنَ لَهُم. وكانَ قَدَرُنا أَنْ نَكُونَ سُجَناءَ في أَحَدِ هٰذِهِ الأَكْواخِ. وبَعْدَ فَتْرَةٍ مِنَ الوَقْتِ أَرْسَلَ زَعيمُ القراصنة في طَلَبِي فَذَهَبْتُ إِلَيهِ وأَنا مُوقِنٌ بِهَلاكي عَلَى يَدَيْهِ. ولٰكِنَّه بادَرَني بالسؤالِ عَمَّنْ تَكُونُ هٰذِهِ الأَميرةُ التي بِرِفْقَتي وماذا أَكونُ أنا بالنسبةِ لَها؟ فأَخْبَرْتُه بحقيقةِ الأَمْرِ وحَقيقَتِها. ولمَّا سَمِعَ حديثي ابْتَسَمَ في خُبْثٍ وتَوَعَّدَني بالمَوْتِ لَوْ كُنْتُ كاذباً. ثم أَمَرَ أَتْباعَهُ أَنْ يُعِيدُوني إِلى

سِجْنِي مَعَ الأَمِيرَةِ. وأَخبَرْتُها عمَّا كانَ بيني وبَيْنَ زَعِيمِ القَراصِنةِ، وكانَتْ تَسْتَمِعُ وَهِيَ حَزِينَةٌ.

وكنْتُ في دَاخِلي أَشَدُّ مِنْها حُزْناً وَيأْساً لِعَدَمِ مَقْدِرَتي عَلَىٰ فِعْلِ شَيْءٍ مِنْ أَجْلِها. ولَكِنِّي رأَيْتُ الأَمِيرَةَ تبْتَسِمُ وَتَقُولُ: ـ هلْ تَذْكُرُ يَوْمَ أَنْقَذْتَني وأنا طِفْلَةٌ صَغِيرَةٌ مِنْ أَيْدِي السُّودِ في الجَزِيرَةِ؟

فأَجَبْتُها: ـ نَعَمْ أَذْكُر. وكَمْ أَدْهَشَتْنِي شَجاعَتُكِ وذكاؤُكِ يَوْمَها!

فَقَالَتْ: ـ إِنِّي الآنَ أَكبَرُ عُمْراً وأَصْلَبُ عوداً وأَكْثَرُ شَجاعَةً. لكنِّي لسْتُ في مِثْلِ ذكائِكَ الذي أَنقَذَنا فِي المَاضِي. وتذكَّرْتُ تلكَ الفِكْرَةَ التي واتاني ذَكائي بِهَا فهَرَبْنا مِنَ الجَزيرةِ وتركْنا السُّودَ فِيها حتَّى أَرسَلْتُ إليهم الجُنْد بَعْد ذلك فَقَتلُوهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ. وتساءَلْتُ عمَّا إذا كَانَ يُمْكِنُ أَنْ أَفْعَلَ ذَلِكَ مَرَّةً أخرى؟ ولكِنِّي رَأَيْتُ الوَضْعَ هٰذِهِ المرَّةَ يخْتَلِف. فإنَّنا سُجَناءُ فِي هٰذَا الكُوخِ. والقَراصِنَةُ حوْلَنا أَقْوِياءُ وَمُسَلَّحُونَ. كما أنَّ وسيلةَ الهُرُوبِ كانَتْ سفينةً كبيرةً ولَيْسَتْ زَوارِقَ صَغِيرَةً. فكَيْفَ السَّبِيلُ إِلى ٱلْفِرارِ؟!!

كانَتِ الأَمِيرَةُ تَلْحَظُ شُرُودِي وَتَفْكِيري فاقْتَرَبَتْ مِنِّي وقالتْ: ـ لا بُدَّ أَنَّكَ الآنَ تُفَكِّرُ فِي وسِيلَةٍ تُنْقِذُنا مِمَّا نَحْنُ فِيهِ.

فقلْتُ لَها: ـ إِنِّي أُحاوِلُ أَنْ أَجِدَ مَخْرَجاً لَنا. ولَكِنِّي لا أَعْرِفُ بَعْدُ كيفَ السَّبِيلُ إِلىٰ ذٰلِكَ.

فقالَتْ: ـ سَوْفَ يُلْهِمُكَ ٱللّٰهُ ٱلوسِيلَةَ ويَهْدِيكَ إِلىٰ السَّبِيلِ المَأْمُونِ.

فأَجَبْتُها بِقَوْلي: يَفْعَلُ ٱللّٰهُ ما يُرِيد.

ثمَّ أتَى المَسَاءُ بِظَلامِهِ فاَسْتَسْلَمْنا للنَوْم.

وفي مَنَامِي رأيتُ نَفْسِي أقودُ مَرْكَبَ القَراصِنَةِ والبَحّارةُ كلُّهُمْ مِنَ الوصيفاتِ والجَوارِي. بينما القَراصِنَةُ صَرْعى علَى وجْهِ الماءِ تعْلُو جُثَثُهُمْ فَوْقَ الأمْواجِ.

وصَحَوْتُ مِنْ نَوْمِي فَرِحاً لاعْتِقادِي أنَّها حَقِيقَةٌ وَلَيْسَتْ حُلْماً.

ثم صَدَمَنِي الواقِعُ وجَعَلَنِي أشْعُرُ بِحَسْرةٍ شَدِيدَةٍ. وأخذْتُ أفَكِّرُ فيما لوْ كانَ هٰذا حقيقةً. ولكِنْ كَيْفَ؟ لا أعلم.

واستيقظَتِ الأميرةُ فَرَوَيْتُ لَها الحُلْمَ الَّذِي رأيْتُه فَفَرِحَتْ وقالَتْ: ـ رُبَّما يحقّقُ اللّٰهُ حُلْمَكَ وتُكْتَبُ لَنا النَّجاةُ. فقلْتُ: ـ ولٰكِنْ كيفَ السبيلُ إلىٰ ذٰلِكَ ونحْنُ هُنا في هٰذا الكوخِ سُجَناءُ لا نَقْدِرُ علىٰ الخُرُوجِ مِنْ بَابِهِ؟ فقالَتِ الأميرةُ: دَعْ هٰذا الأمْرَ لي.

وجاءَ اثنانِ مِنَ اللُّصوصِ يَحْمِلانِ لَنا الطعامَ فقالَت لَهُما الأميرةُ إنَّها تَوَدُّ أنْ تُقابِلَ زَعِيمَهُم. فذَهَبا ثُمَّ عادَ أحَدُهُما وأخذَها معَه إلى الزَّعيم.

وعادَتْ بَعْدَها الأميرةُ لِتُبَشِّرَنِي وَهِيَ مُتَهَلِّلَةُ الوَجْهِ بِأنَّنا لَنْ نَكُونَ سُجَناءَ فِي هٰذا الكُوخِ بَعْدَ الآن. فقدْ طَلَبَتْ مِنَ الزعيمِ أنْ يَفُكَّ أسْرَنا طالَما أنَّنا لَنْ نَسْتَطِيعَ الفِرارَ مِنَ الجزيرةِ وفي مُقابِلِ هذا فَسَتَكْتُبُ رِسالَةً إلىٰ والِدِها تطالِبُهُ فيها بأنْ يَدْفَعَ لِحامِلِها فِدْيَةً تفكُّ أسْرَها. فانْدَهَشْتُ مِنْ حَدِيثِها وقُلْتُ لَها: ـ ومَاذا يُفِيدُ طالَما سَنَبْقى في أسْرِهِمْ ولَيْسَ لَنا مِنَ الجَزِيرَةِ مَخْرَجٌ؟

فقالَتْ. . دعْني هٰذهِ المرَّةَ أفكِّر في وَسِيلةِ الهُرُوبِ مِنْ هٰذهِ الجزيرةِ. لكنِّي أريدُ أنْ أسألَكَ: ـ هلْ يُمْكِنُ لَكَ أنْ تقودَ سَفِينَتَهُمْ على أنْ يُعاوِنَكَ الجَوارِي والوَصِيفَاتُ؟ فأجَبْتُها بأنَّ لي دِرايةً بِقِيادَةِ مِثْلِ هٰذِهِ السفينةِ. ولكِنْ كيفَ سَنَسْتَوْلي عَلَيْها؟ فقالَتْ: ـ دَعْ هٰذا لِي وسأُخْبِرُكَ في الوقْتِ المُناسِبِ.

بعد ذلِكَ أصبَحْنا نَتَحَرَّكُ داخِلَ الجَزِيرَةِ بِحُرِّيَّةٍ تامَّةٍ. وأصبحُوا لا يلتفِتُونَ إلَيْنا.

وكثيراً ما كَانَتْ زَوْجاتُ اللُّصوصِ يَأْتِينَ إلى الأميرَةِ لِيُشاهِدْنَها وَيَتحدَّثْنَ مَعَهَا. والحقُّ يُقالُ أنَّ زعيمَ القراصِنَةِ كانَ صارِماً مَعَ رجالِهِ الَّذِينَ أَمَرَهُمْ أَلاَّ يتعرَّضُوا للأميرةِ وَمَنْ مَعَها بأيِّ سُوءٍ. وسيكونُ القتلُ جزاءَ مَنْ يُخالِفُ أَمْرَه.

وفي أَحَدِ الأَيَّامِ طَلَبَنِي زَعيمُهُمْ وَأَمَرَني أَنْ أَكْتُبَ رِسالَةً إلى الخَليفَةِ أَطْلُبُ مِنْهُ أَنْ يُسَلِّمَ حامِلَها فِدْيَةَ الأميرَةِ الَّتِي سَتَصِيرُ زوجةً لابْنِه. فقلتُ لَهُ: ـ إنَّ الأميرةَ قَدْ سَبَقَ وَكَتَبَتْ رِسالَةً إلى وَالِدِها. فضَحِكَ ضِحْكَةً مُدَوِّيَةً وقالَ: ـ وما يَمْنَعُ أَنْ يَدْفَعَ لِي مَهْرَ عَرُوسِهِ. ولَمْ أَجِدْ مَناصاً مِنْ أَنْ أَكْتُبَ لَهُ الرِّسالَةَ حتّى لا أَتَعرَّضَ للأذى أو الحَبْس. ولكنْ بَعْدَ أَنْ تَرَكْتُهُ صَمَّمْتُ على أَنْ أُحاوِلَ الهَرَبَ بأيِّ طَرِيقَةٍ قَبْلَ أَنْ يأخُذُوا الفِدْيَة. فرُبَّما يَقْتُلونَنَا بَعْدَها أو يُسِيئُونَ إلى الأَمِيرَة.

وأخذْتُ أَتَجَوَّلُ في أَنْحاءِ الجَزيرةِ وأَنا أَقْدَحُ زِنادَ فِكْرِي حتّى غَلَبَنِي التَّعَبُ فَجَلَسْتُ في ظِلِّ شَجَرَةٍ لأَسْتَرِيحَ. ولَمْ يَمْضِ عَلَى جُلوسي وقْتٌ طَويلٌ حتّى رأيتُ خيالاً خَلْفَ الأَغْصانِ البَعيدَةِ وسَمِعْتُ صوتَ أَقْدامٍ فتوارَيْتُ خَلْفَ الشَّجَرَةِ وأنا أُتابِعُ هٰذا المُتَسَلِّلَ فرأيتُهُ زَعِيمَ القَرَاصِنَةِ وَمَعَه رَجُلانِ مِنْ أَتْباعِه. وهُمْ يجدُّونَ السَّيْرَ في اتجاهِ صَخْرَةٍ كبيرةٍ. ولَمَّا وصَلُوا إليْها رَفَعُوا الصَّخْرَةَ من مكانِها فظَهَرَتْ مِنْ تَحْتِها فَجْوَةٌ نَزَلُوا فيها جَميعاً ثُمَّ عادُوا ووَضَعُوا الصَّخْرَةَ في مَكانِها وانْصَرَفُوا منْ غَيْرِ أَنْ يَشْعُروا بوُجُودي. ولَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أذْهَبَ إلى تِلْكَ الصَّخْرَةِ خَوْفاً مِنْ أَنْ يَراني أحَدُهُمْ. وبَقِيتُ في مَكاني بُرْهَةً أُفَكِّرُ في أَمْرِ هٰذِهِ الصخرةِ وتِلْكَ الفَجْوَةِ الَّتِي تَحْتَها. وخَمَّنْتُ أنَّها قَدْ تكونُ مَخْزَناً يحتفِظُونَ فيه بِسَرِقَاتِهِمْ وكُنُوزِهِمْ. أو رُبَّما تَكُونُ سِجْناً للمُذْنِبِينَ مِنْهُم. أيّاً كانَ هذا الشيءُ فلَمْ يَكُنْ بِي حاجَةٌ إلى رُؤْيَتِهِ في هٰذِهِ السّاعَةِ ولذا فقَدْ نَهَضْتُ مِنْ مَكانِي وعُدْتُ لأُخْبِرَ الأميرَةَ بالأَمْرِ فتعجَّبَتْ وأَرادَتْ أَنْ أَذْهَبَ بِهَا إلى المَكانِ ولكِنِّي أَبَيْتُ ذٰلِكَ.

مضَتْ أَيّامٌ ونَحْنُ على حالٍ لا يَتَغَيَّرُ ولا يَتَبَدَّلُ حتّى جاءَ يَوْمٌ عَلِمْنا أَنَّ القَراصِنَةَ

سَيَخْرُجُونَ إلى عُرْضِ البَحْرِ كَيْ يَتَرَبَّصُوا كَعَادَتِهِمْ بالمراكبِ المُسَافِرَةِ وَيَنْهَبُوهَا مِثْلَما فَعَلُوا مَعَنَا. وقَالَتِ الأَمِيرَةُ: ـ لا بُدَّ أنَّهُمْ سَيُرْسِلُونَ إلى أبي وإلى الخَلِيفَةِ بِرُسُلِهِمْ ومَعَهُمْ رَسَائِلُنا ويَطْلُبُوا الفِدْيَةَ. وبَعْدَها لا نَعْرِفُ ماذا سَيَكُونُ مِنْ أمْرِهِمْ مَعَنَا وحُكْمِهِمْ فِينا. وهُمْ يَرَوْنَنا لا حَوْلَ لنا ولا قُوَّةَ. ولِذا وَجَبَ أنْ أفْعَلَ شَيْئاً قَدْ آنَ أوانُه. فسألْتُها عمّا يَكُونُ هَذا الَّذِي سَتَفْعَلُه. فقالَتْ: ـ ستعرف في حِينِه. فقُلْتُ لَها: ـ يا أميرَتي إنَّكِ أمانَةٌ في عُنُقِي أفْدِيكِ بِرُوحِي ولا أُرِيدُ أنْ تَدْفَعِي بِنَفْسِكِ إلى أيِّ خَطَرٍ أو أمْرٍ يكونُ فيهِ هَلاكُكِ. فقالَتْ: ـ لا تَخَفْ، واعلَمْ أنِّي إذا لَمْ أكُنْ شُجاعَةً فلَنْ أكونَ جَدِيرَةً بابنِ الخَلِيفَةِ. ثم تَرَكَتْني وذَهَبَتْ عَنِّي لِتَعُودَ بَعْدَ فَتْرَةٍ مُتَهَلِّلَةَ الأسارِيرِ مُنْشَرِحَةَ الوَجْهِ. وقالَتْ لِي: ـ إعلَمْ أنَّ مساءَ الغَدِ هُوَ مَوْعِدُ رَحِيلِنا. فَهَيَّا مَعِي نذهب إلى الصَّخْرَةِ الَّتي حَدَّثْتَني عَنْها. فقُلْتُ لَها: ـ يا أميرَتِي ما حاجَتُكِ إلى الصَّخْرَةِ الآنَ وأنْتِ تَقُولِينَ إنَّنا سَنَرْحَلُ مَساءَ الغَدِ؟ فأخْبِرِيني بِاللَّهِ عَلَيْكِ ماذا تُرِيدِينَ؟ فقالَتْ: ـ أمَّا الصخرةُ فَقَدْ عَرَفْتُ مِنْ نِساءِ القَراصِنَةِ أنَّ لَهُمْ مَغارَةً يُخْفُونَ فِيها أمْوالَهُمْ ولا يُمْكِنُ أنْ نَتْرُكَ لَهُمْ ما أرْسَلَهُ أبِي إلى الخَلِيفَةِ مِنَ الهَدايَا. إذْ لا يُمْكِنُ أنْ تُقَدِّمَنِي إليهِ في هذهِ الصورةِ البائسَةِ الفَقِيرَةِ وأنا لا أرْتَضِي لِنَفْسِي هذا، فقُلْتُ لَها: ـ إذاً أخْبِرِيني كَيْفَ سَنَخْرُجُ مِنْ هُنا؟ فقالَتْ: ـ لقد عَرَفْتُ أيْضاً أنَّهُمْ يَحْتَفِلُونَ دائماً لَيلَةَ خُرُوجِهِمْ إلى البَحْرِ ويُقِيمُونَ حَفْلاً يَرْقُصُونَ فِيهِ وَيَشْرَبُونَ حَتّى آخِرِ اللَّيلِ ويَرْحَلُونَ في صَباحِ اليَوْمِ الذي يَلِيهِ. فأقْنَعْتُ زَعِيمَهُمْ بأنِّي سأصْنَعُ لَهُمْ في هذهِ اللَّيلةِ طَعامَ المُلُوكِ وشَرابَهُمْ وسَيَتَعَلَّمُ نِساؤُهُمْ مِنِّي ذلِكَ. وقَدْ سُرَّ الزَّعِيمُ لِذلِكَ. وسَتَرَى ما سَيَحْدُثُ لَهُمْ بَعْدَ أنْ يَأكُلُوا طَعامِي وَيَشْرَبُوا شَرابِي. فتَمَلَّكَني خَوْفٌ عَلَيْها وقُلْتُ: ـ وهَلْ سَتَضَعِينَ لَهُمْ سُمّاً في الطَّعامِ؟ فقالَتْ: ـ لَيْتَنِي أجِدُ السُّمَّ، ولكِنِّي لا أجِدُ إلاّ أعْشاباً مُخَدِّرَةً نَسْتَطِيعُ أنْ تَنالَ مِنْهُمْ جميعاً. فقُلْتُ لَها إنِّي أخْشَى أنْ يَكْتَشِفُوا الأمْرَ وَيَكُونَ في هذا هَلاكُكِ. فأجابَتْ في صَرامَةٍ وقُوَّةٍ بأنَّها تفضِّلُ المَوْتَ على

الحَياةِ المَهينَةِ الَّتي لا تَليقُ بِمِثْلِها. ثمَّ قالَتْ مُتَسائِلَةً: - هلْ خانَتْكَ شَجاعَتُكَ يا سِنْدِباد فأصبَحْتَ تخْشى المَوْتَ يا مَنْ واجَهْتَ المَوْتَ أكثرَ مِنْ غيرِكَ وعَلِمْتَ أنَّ لِكُلِّ أجلٍ ميعاداً؟ ولَنْ يَموتَ الإنْسانُ في غَيْرِ مَوْعِدِهِ؟!!.

فقُلْتُ لَها: - كلّا يا أميرَتي. أنا لَسْتُ جَباناً. كلُّ ما في الأمْرِ أنّي أخْشى عَلَيْكِ ولا أحْتَمِلُ أنْ يُصيبَكِ أذىً. فهيَّا بِنا الآنَ نَذْهَبُ إلى هٰذهِ الصَّخْرَةِ لِنَعْرِفَ ما تَحْتَها.

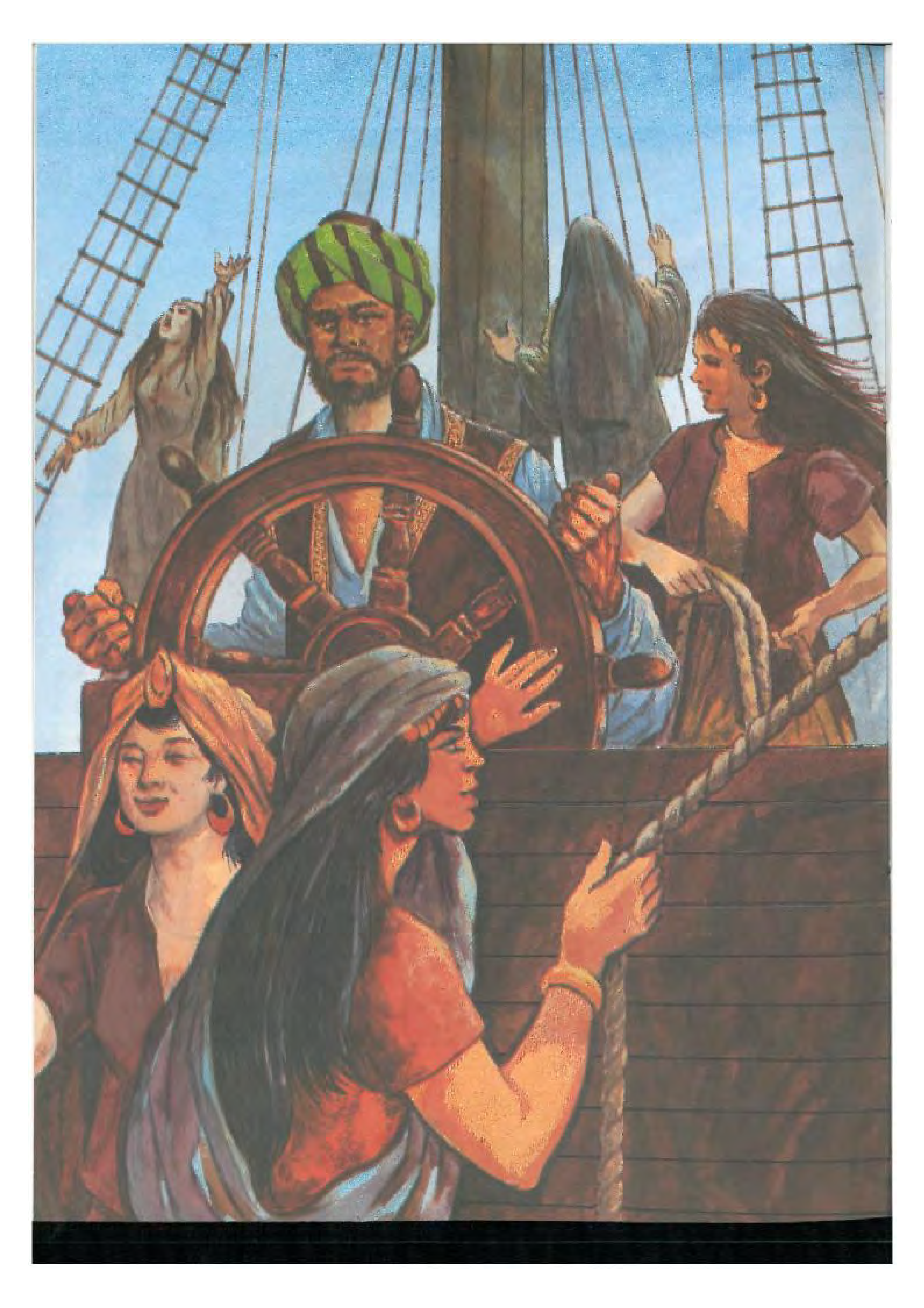
مضيتُ أنا وهِيَ مُتَسَلِّلَيْنِ إلى الصَّخْرَةِ وتَعاونّا على زَحْزَحَتِها، وبَعْدَ جهْدٍ نزَلْنا إلى الفُتْحَةِ التي بأسْفَلِها لنَجِدَ مَغارَةً واسِعَةً مَليئَةً بكلِّ ما رأتْهُ العينُ وسمِعَتْ بِهِ الأُذُنُ مِنَ الذَّهَبِ والجَواهِرِ والمَالِ والثِّيابِ. فتركْنا كُلَّ شيءٍ في مَكانِهِ وخَرَجْنا فوَضَعْنا الصَّخْرَةَ في مَكانِها. وذَهَبْتُ إلى حَيْثُ أشارَتْ لِي إلى بَعْضِ الأعْشابِ فجَمَعْنا مِنْها قَدْرَ طاقَتِنا وطَلَبَتْ إليَّ ألَّا أضعَ شيئاً مِنها في فَمِي فَضَحِكْتُ مِنْ قَوْلِها وَذَهَبْنا إلى الكُوخِ وكانَتْ بعضُ النِّسْوَةِ مِنْ زوجاتِ اللصُوصِ مَعَ الجواري وقدْ أحْضَرْنَ أشياءَ كثيرةً مِنَ الخُضْرَواتِ والفاكِهَةِ وجلسْنَ يعمَلْنَ في تَقْشيرِها وتَقْطيعِها. فعلِمْتُ أنَّ الأمْرَ يَسيرُ في طريقِهِ الصَّحيحِ. ثمّ جاءَ الرجالُ بعدَها يحمِلُونَ أغناماً وغِزلاناً مذبُوحَةً وامتلأتِ الساحَةُ أمامَ الكُوخِ بالحَرَكَةِ والنَّشاطِ. فمِنْ قائِمٍ بسلخِ الحَيَوانِ وجامِعٍ للخَشَبِ والأعْشابِ إلى مُوقِدٍ للنّارِ ومُهَيِّءٍ للأواني والقُدُورِ. وظلَّ الجميعُ يَعْمَلُ وأنا مَعَهُمْ طوالَ النَّهارِ وجزْءاً من الليلِ حتّى نالَ التعبُ مِنَ الجَميعِ فاسْتَسْلَمْنا للنَّوْمِ حتّى اليومِ التالي لنَسْتأنِفَ العَمَلَ علَى قَدَمٍ وَساقٍ.

وما أنْ غَرَبَتِ الشَّمْسُ حتّى اجْتَمَعَ الجَميعُ قُرْبَ الشاطِئِ علَى ضَوءِ المَشاعِلِ وبَدَأ الحَفْلُ بالرَّقْصِ والمُبارزَةِ. وجاءَ الطعامُ وكانَتْ رائحتُه طَيِّبَةً شَهِيَّةً فأقْبَلُوا عليهِ وكأنَّهُمْ ما رَأَوْا طَعاماً في حَياتِهِمْ. ثُمّ رفَعُوا قُدُورَ الشَّرابِ إلى أفْواهِهِمْ يَعُبُّونَ مِنْها في

شَراهَةٍ وَنَشْوَةٍ. . وما مَضى عَلَيهِمْ أَوَّلُ الليلِ إلَّا وكانُوا فوْقَ الأَرْضِ بِلا حِراكٍ وكأنَّهُمْ أمْواتٌ مِنْ ألْفِ عام.

وأسْرَعْتُ إلى الأميرَةِ في الكُوخِ لأَجِدَهَا بانْتِظاري ومَنْ مَعَهَا مِنَ الجواري والوَصيفاتِ فقالَتْ لي: ـ الآنَ خُذْ بَعْضَ الجَواري واذْهَبْ إلى مَرْكَبِ القَراصِنَةِ واجْعَلُوهُ جَاهِزاً للرَّحيلِ واتْرُكْ لي البَاقي فأنا بِحاجَةٍ إليهِنَّ. فأخَذْتُ مَعي أربعاً مِنَ الجواري وأسْرَعْتُ إلى المَرْكَبِ فحَلَلْتُ قلوعَهُ مِنْ غَيْرِ أنْ أنْشُرَها واخْتَبَرْتُ المِرْساةَ وجَعَلْتُ كُلَّ شيءٍ عَلى أُهْبَةِ الرَّحيل. وكانَ القراصِنَةُ قَدْ ملأوها بِما يَلْزَمُ مِنْ طَعامٍ وَماءٍ استِعْداداً لِلرِّحْلَةِ الطَّويلَةِ. وبَعْدَ فَتْرَةٍ جاءَتْ بقيَّةُ الجَواري يَحْمِلْنَ على رُؤوسِهِنَّ صناديقَ وضَعْنَها على ظَهْرِ المَرْكَبِ فسألْتُهُنَّ عَنِ الأَميرَةِ فقُلْنَ إنَّها تَنْتَظِرُ عِنْدَ الصَّخْرَةِ وأمَرَتْهُنَّ بالعَوْدَةِ إلَيْها. فقلت لَهُنَّ: باللهِ عليكُنَّ أَحْضِرْنَها ولا تَجْعَلْنَها تَبْقى، فَقَدْ آنَ وَقْتُ الرَّحيلِ قَبْلَ أنْ يَكْتَشِفَ القَراصِنَةُ أمْرَنا.

جلسْتُ أنتظرُ فَوْقَ المَرْكَبِ وأنْظُرُ في قَلَقٍ بَالِغٍ إلى القَراصِنَةِ خَوْفاً مِنْ أنْ يَسْتَيْقِظُوا، وطَالَ غِيابُ الأَميرَةِ وأصْبَحَ الوَقْتُ يَمُرُّ بِبُطْءٍ ولاحَتْ في الأُفُقِ خُيوطُ الفَجْرِ الأولى وَلَمْ تَحْضرِ الأَميرَةُ وَمَنْ مَعَها فقرَّرْتُ أنْ أنْزِلَ إلَيْها وأسْرَعْتُ إلى الشَّاطِئِ وأنا في شِدَّةِ الأَسَى والحُزْنِ عَلَى مَا يُمْكِنُ أنْ يكونَ قَدْ أصابَها وقَرَّرْتُ أنْ يَكُونَ مَصيري مِثْلَ مَصيرِها. ولَكِنَّني رَأيْتُ الجَواري مُقْبِلاتٍ يَحْمِلْنَ فَوْقَ رُؤوسِهِنَّ الصناديقَ والأَميرَةُ مِثْلَهُنَّ فحَمَلْتُ عَنْها ما كانَ مَعَها وأسْرَعْتُ بِهِنَّ إلى المَرْكَبِ وكانَتْ تباشِيرُ الصباحِ قَدْ شَرَعَتْ في ضِياءِ الكَوْنِ فتَعاوَنَّا جميعاً على رَفْعِ المِرْساةِ ثُمَّ جَذَبْنا الحِبالَ لِيَرْتَفِعَ الشِّراعُ ويَمْتَلِئَ بالهَواءِ وأسْرَعْتُ إلى الدفَّةِ وحَوَّلْتُ مقدِّمَةَ المَرْكَبِ إلى ناحيةِ البَحْرِ وتحَرَّكَ مَعَ نَسَماتِ الصَّباحِ النَّدِيَّةِ وأخَذَ يَبْتَعِدُ عَنِ الشاطئِ رُوَيداً رُوَيداً حتَّى احْتَوانا البَحْرُ واختفَى الشاطِئُ خَلْفَنا وأصْبَحْنا في مأمَنٍ مِنْ كُلِّ سُوءٍ. ووقفْتُ مُمْسِكاً الدفَّةَ بِيَدِي بَيْنَما وَقَفَتِ





الأميرةُ تأخذُ مِنّي الأوامِرَ لِتُصْدِرَها إلى جَوارِيها. وهكَذا أصْبَحْتُ أنا القبطانَ والأميرةُ هِي المُساعِدَ والجَوارِي بَحّارَةَ المَرْكَبِ. وكانَ لا بُدَّ للمُساعِدِ من أنْ يقُومَ مُقامِي في وَقْتِ نَوْمِي أو طَعامِي ولِذا جَعَلْتُها تَقِفُ بِجانِبِي مُمْسِكَةً الدَّفَّةَ وشَرَحْتُ لَها كَيْفَ تَسْتَرْشِدُ بالنُّجُومِ حتّى لا تُخْطِىءَ الاتِّجاهَ. وهكذا وَفَّقَنا اللّهُ في رِحْلَتِنا ولَمْ يُعَكِّرْ صَفْوَنا شَيْءٌ حتّى لاحَتْ لَنا مَدِينَةُ البَصْرَةِ فَبَدا السُّرُورُ عَلَيْنا جَمِيعاً وامتلأتْ نفوسُنا بالفَرْحَةِ والبَهْجَةِ. وطَلَبْتُ مِنَ الأَميرَةِ أنْ تَخْلَعَ هي ووَصِيفاتُها وجَوارِيها مَلابِسَ العَمَلِ ويَرْتَدِينَ مَلابِسَهُنَّ الَّتي تَدُلُّ عَلَيْهِنَّ.

ونَزَلْتُ إلى المِيناءِ وبَحَثْتُ عنْ قائِدِ شُرْطَتِها حتّى عثَرْتُ عَلَيْه وأخْبَرْتُه بِمَنْ مَعِي وطَلَبْتُ إلَيْهِ أنْ يُجَهِّزَ لَنا قافِلَةً تَلِيقُ بِمَقامِ زَوْجَةِ ابْنِ الخَلِيفَةِ ويُرْسِلَ أحَدَ الرُّسُلِ إلى بَغْدادَ لِتَبْلِيغِ الخَلِيفَةِ بِوُصُولِنا.

وقدْ أسْرَعَ قائِدُ الشُّرْطَةِ بِتَجْهِيزِ القافِلَةِ والحَرَسِ المُرافِقِ لَها بَعْدَ أنْ أرْسَلَ إلى الخليفةِ برَسُولِهِ. ومَضَتِ القافِلَةُ مِنْ يَوْمِهَا لِتَقْطَعَ الصَّحْراءَ مُتَّجِهَةً إلى بَغْداد الَّتي ما أنْ أشْرَفْنا عَلَيْهَا حتّى كانَ مَوْكِبُ الخليفةِ يقفُ على مشارِفِها بانْتِظارِنا. وكانَ لقاءٌ عظيماً يَلِيقُ بابْنَةِ سُلْطانٍ عَظِيمٍ وزَوْجَةٍ لأميرٍ عَظِيم.

وأُقِيمَتِ الأفْراحُ شَهْراً كاملاً ازْدانَتْ فِيهِ بَغْداد بكُلِّ ما يُبْهِجُ النَّفْسَ ويَسُرُّ الخاطِرَ.



ويومَ الزِّفافِ وقفَ الخليفةُ أمامَ وزرائِهِ وحاشيتِهِ وأكابرِ مَمْلَكتِهِ ليقدِّمَ لي الشُّكْرَ علىٰ ما قدَّمْتُهُ للخِلافَةِ مِنْ عظيمِ خِدْماتي ووَهَبَ لِي كُلَّ ما حَمَلْنَاهُ مَعَنا مِنْ جزيرةِ القَراصِنَةِ مِنَ الكُنُوزِ والمالِ والهَدايا.

وعُدْتُ إلى حَياتِي السَّابِقَةِ بَعْدَ أنْ زادَ مَالِي وكَثُرَتْ تِجارَتِي وعاهَدْتُ نَفْسِي عَلَىٰ ألَّا أعُودَ إلى السَّفَرِ مَرَّةً أخْرَى مَهْمَا كانَتِ الأسْبابُ.

ولكنْ لمْ أكُنْ أدْرِي أنَّ القَدَرَ يُخَبِّئُ لي في طَيَّاتِهِ رِحْلَةً أخْرَى رأيْتُ فِيهَا مِنَ الأهْوالِ ما لَمْ أشاهِدْهُ قَبْلَ ذٰلِكَ فِي رِحلاتِي.

فإلىٰ لِقاءٍ آخَرَ.



أسئلة حول الرحلة الخامسة

١	ماذا طَلَبَ الخليفة إلى السندباد البحري؟ كيف وافق السندباد على طلب الخليفة؟
٢	ما هي حقيقة سوء التفاهم الذي حصل بين السندباد وكبير الفرسان في البلاد التي قصدها؟
٣	كيف استقبل قائد الحرس السندباد؟ لماذا؟
٤	هل رحب الملك بالسندباد؟ كيف؟
٥	هل كان للسندباد ما أراد؟ كيف وُدِّع ومَنْ معه؟
٦	ما الذي تعرضت له السفينة في البحر؟ وكيف انتهت المعركة؟
٧	لِمَ لَمْ يقتل القراصنة السندباد؟ ولِمَ لَمْ يؤذوا الأميرة؟
٨	لِمَ عامل القراصنة السندباد والأميرة معاملة حسنة في الجزيرة؟
٩	ما هي الخطة التي رسمتها الأميرة للهرب؟
١٠	كيف استُقبل السندباد والأميرة والجواري عند وصولهم إلى بغداد؟

قاموس الألفاظ

أ

أبرح: أغادر.
أبَيْتُ: رفضْتُ.
أحث الخطى: أسرع الخطى.
أرتج عَلَيْه: امتنع عليه الكلام.
أعقبها: تلاها - أتى بعدها.
أمعنتُ النظر: حدَّقْتُ.
انتابتني: أصابتني.

ب

البِشْر: السرور.

ت

تذمُّر: تضايق وتَضجُّر.
تميد: تتحرك وتضطرب.

ث

الثُلَّة: جماعة من الناس.

ج

الجَلَبَة: الصياح واختلاط الأصوات.

ح

الحُجُب: الستائر.

خ

خطب: مصاب.

ر

ربَّت: ضرب بلطف.

ش

شراهة: نهم

ص

صارماً: حازماً.
صرعى: قتلى.

ل

لاحت: ظهرت من بعيد.

ق

القراصنة: لصوص البحر.
القلوع: الأشرعة.

م

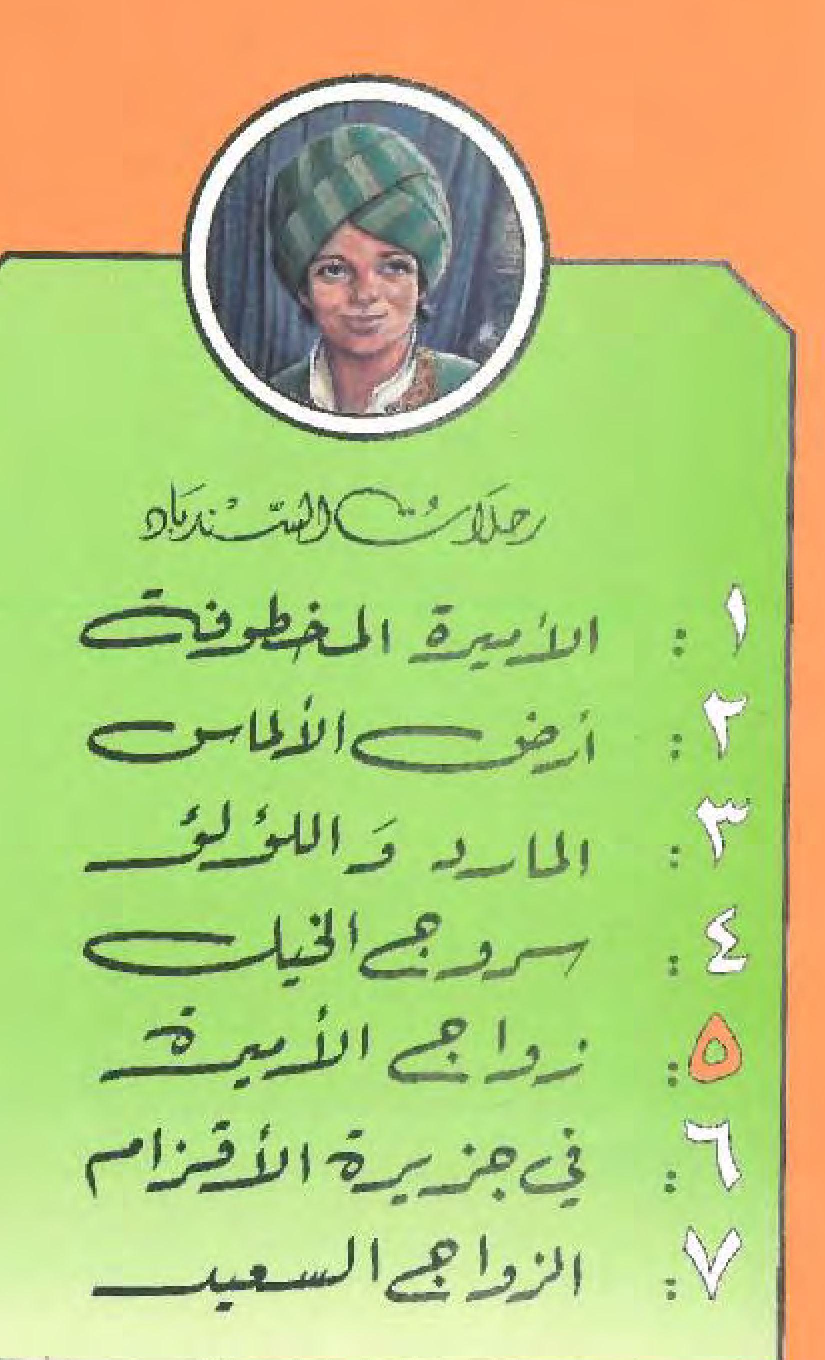
متوعدة: مُهدِّدة.
مهتاجاً: ثائراً.
موقن: متأكد.

ن

نشوة: لذة.
النفائس: الأشياء الغالية التي يتنافس عليها.

ي

يُجيدُه: يتقنُه.
يُزَفُّ إليهم: يُهْدِيهم.



الدار النموذجية للطباعة والنشر
صيدا - بيروت